سلامه موسى

الأدب والحياة

دار النشر المصرية

سلامه موسى

الأدب والحياة

الناشر

دار النشر المصرية

٤٧ شارع عبد العزيز ــ القاهرة

تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com

منهج – وكاتب

- ولد سلامه موسى بقرية من قرى مديرية الشرقية عام ١٨٨٧ .
- توفى والده – ولم يتم السنتين – عن ثروة متوسطة ، ورعاه قريب شريف وأم عطوف .
- درس بالمدارس المصرية ، ثم اتجه إلى إنجلترا لدراسة القانون .. القانون البريطانى الذي يقوم على العرف والتقاليد !!
- لم يطق دراسة القوانين البريطانية لنزعتها الاستبدادية التى تعادى روحه المتحرر ، واعتمادها على الخرافات . فهجرها إلى دراسة الآداب والفنون والعلوم الطبيعية ، وفى مقدمتها النظرية التى غيرت الفكر الأوربى ، ونهضت به « النهضة الثانية » ، وكانت خميرة الحضارة المعاصرة .. وهى نظرية التطور .
- إعتمد فى دراسته الذاتية فى انجلترا على المحاضرات الثقافية العامة فى مدرجات الجامعات والندوات الشعبية التى كان يعقدها الكتاب الأحرار ، والاتصال الشخصى بهم . . . فتعلم على أيدى قادة الشعب الحقيقيين دعاة التقدم ، وعلى

المشاهدة الواعيـة لنضال الجماهير الأوروبية ــ فى أوائل هذا القرن ــ للحصول على حقوقهم الاقتصادية والسياسية .

- أول مؤلفاته « مقدمة السبرمان » سنة ١٩٠٩ كتبها وهو طالب فى لندن . وهى رسالة صغيرة أعلن فيها أنه اشتراكى يؤمن بالتطور ومادية الكون .
- أول مقال له فى الصحف هو « نيتشـه وابن الإنسان » نشر فى المقتطف سنة ١٩٠٩ .
- عاد إلى الوطن ، واشتغل معلماً بمدرسة إبتدائية بالزقازيق ، ثم بمدرسة ثانوية بالقاهرة .
- كتب سنة ١٩١٢ كتابا عن الإشتركية .
- أصدر سنة ١٩١٤ أول مجلة أسبوعية مصرية باسم «المستقبل» .
- التحق أثناء إقامته بلندن بالجمعية الفابية الإشتراكية نواة حزب العمال ، وكذلك قرأ كل مؤلفات جمعية العقليين الذين يرون أن السيادة يجب أن تكون للعقل الإنسانى والفكر العلمى ، وإلغاء الفلسفات التى تخدر الشعوب : فلسفة الفقر .. واليأس .. وشعور الإنسان بالذنب .. لأنه إنسان . ! !
- تأثر بإبسن رائد المسرح الاجتماعى ، الذى جعل المسرح مدرسة ومصحة .. لدراسة وعلاج مشاكل المجتمع .

- درس مؤلفات برناردشو داعية الفكر العلمي ، ومؤلفات ويلز ذا النظرة العالمية .
- تبلغ مؤلفاته حوالى الأربعين كتاباً ، عدا مئات المقالات والقصص ، وتتجه كلها للدعوة إلى أن يكون للأدب والفنون رسالة هى تطوير عواطف الشعب ، كى يحمل — واعياً — مسئولياته فى عصر الذرة والإشتراكية :
- يؤمن بأن الحرية هى أساس الحضارة الإنسانية فإذا انطفأت الحرية تعطل سير الإنسان إلى مرحلة أرقى .. بل تتجه البشرية حتما إلى الحروب والمجاعات ، وكل ضروب الدمار والاستبداد.
- أصدر ما يزيد على خمسة عشر مجلة وجريدة ، وكان يقطن ومطبعته فى الحارات ... بين الشعب .
- أول من كتب بالعربية عن الإشتراكية . . والتفسير الاقتصادى للتاريخ . . والتحليل النفسى . . وآراء ميشورين وليسنكو السوفييت فى الزراعة .
- أدخل على اللغة العربية — وحده — مئات الكلمات الجديدة التى جرى استعمالها ، أكثر مما أدخله مجمع اللغة العربية منذ إنشائه . ومن الكلمات التى اخترعها : «التطور» و « الثقافة » و «الوعى» و«الموطر» و«الحيوانات البرمائية» و«الأدب اليسارى»وغيرها.
- كتب منذ ثلاثين عاما — كتابه « نظرية التطور وأصل

الإنسان فأوضح لقراء العربية فى أسهل عرض وأسلس صياغة أن التطور! قانون على يشمل المادة . . والكون . . والنبات والحيوان والانسان . . واللغة . . والأفكار . . والعقائد . والأديان مع اختلافها . . والفلسفة . . والنظم الاقتصادية إقطاعية أو اشتراكية . . والنظم الإجتماعية كالأسرة والزواج وأن ماتحت الشمس متجدد ومتطور ، والمادة أو الحى الذى لايتطور يفنى أو ينقرض .

- دعا الشباب المصرى ـ فى كتبه ومقالاته ومحاضراته ـ إلى أن ينظر إلى المشكلات العامة فى بلاده ، وإلى المشكلات الدولية باهتمام يفوق اهتمامه بمشكلاته الشخصية ، لأن العالم هو قريتنا الكبرى . . كل منا مسئول عن سلامتها وتنسيقها . . مسئول عن تحرير العالم من الاستعمار واستغلال أى إنسان لغيره ، ومسئول عن نقل الحضارة الذرية إلى أبنائه فى مرحلة أرقى
- داعية الحب . . والتفاؤل . . وأن الإنسان يمكنه أن يمتد بإرادته إلى عمر أكبر ، لو أزال مخاوفه من الغيبيات والخرافات واستخدم العلم . وألغى الفلسفة الرجعيـة التى تدعوه إلى احتقار الحياة ! !
- عاش واعياً بأحداث مصر السياسية منذ الثورة العرابية والاحتلال البريطانى ، وكتب عن عرابى فقال : « شخصية عرابى هى شخصية مقدسة فى تاريخنا » .

- دعا إلى تحرير اللغة العربية من السجع والزخرفة .. وتحرير الفكر المصرى من النزعة الفردية ، والنفاق بمدح الحكام والمستبدين . ودعا إلى تحرير المرأة وخروجها إلى العمل مع الرجل كى تكتسب حقها فى المساواة الاقتصادية .. ثم المساواة السياسية ناخبة ، ونائبة ، ووزيرة .
- ساهم بقلمه .. وماله .. وحريته فى كل الحركات السياسية والاجتماعية والأدبية التى صعدت بالشعب المصرى خلال نصف قرن الأخير .
- كان أحد المؤسسين للحزب الاشتراكى فى مصر سنة ١٩٢٠ . وقد ألغاه سعد زغلول رئيس الوزراء سنة ١٩٢٤ ، وقبض على أعضائه — ومنهم سلامه — وحاكمهم !! .
- أنشأ سنة ١٩٣٠ مع مجموعة من الوطنيين المصريين جمعية « المصرى للمصرى » لتشجيع التصنيع المصرى ، ومقاطعة البضائع الاستهلاكية الأجنبية .
- وحين تولى صدقى الحكم سنة ١٩٤٦ للتنكيل بخصوم الاستعمار والإقطاع والسراى ، وعرقلة الثورة الوطنية ، قبض على مئات الأحرار المصريين وفى مقدمتهم الدكتور محمد مندور وسلامه موسى . وحققت معهما النيابة — بصفة خاصة — بتهمة « محاولة قلب نظام الحكم من الملوكية إلى الجمهورية » !! .

- حققت النيابة مع سلامه وقتذاك لأنه قال فى إحدى مقالاته : «إن فى مصر من يعيشون بألف جنيه فى اليوم ، ومن يعيشون بثلاثة قروش فى اليوم ، وأحياناً لا يجدون حتى هذا المبلغ» !!.
- فى السنوات التالية لحرب فلسطين : أطبق الاستبداد أنيابه على سلامه موسى (بعد الإفراج عنه من سجنه حيث أودعه صدقى) . . . فامتنعت الصحف عن نشر مقالاته . . وأمر البوليس السياسى المطابع بالكف عن طبع كتبه . . واعتبر البوليس السياسى والمحققين هذه الكتب «أدلة شيوعية» ! ! . وفى هذه الفترة لم يتجاوز دخله الشهرى من الصحافة خمسة جنيهات (! !) بينما أغدقت السراى والحكومة من خزينة الشعب مئات الآلاف من الجنيهات على الكتاب والصحف الذين كانوا يهاجمون الشعب ، ويبذرون فى نفسه عقائد اليأس والطاعة للاستبداد .
- وفى هذه الأيام السوداء فى حياة مصر — وكان الاستبداد قد ضيق عليه وسيلته الوحيدة للمعيشة . . وهى العمل الصحفى والأدبى، أضاء سلامه صفحات إحدى الجرائد القليلة الرواج ، وإحدى المجلات الإقليمية ، بمقالاته النارية ضد الاستعمار والإقطاع والعنصرية . . والدعوة لتأميم قناة السويس . . والبترول .. والقطن .. والتصنيع .

• إذا كتب أديب حياته ، كشفت إعترافاته عن مضمونه الفلسفى : فلسفته الكفاحية أو الرجعية .. المتفائلة أو اليائسة .

وكتاب « تربية سلامه موسى » هو حياته الشخصية ، وما فيها من تجارب . . بسطها فى صدق وسذاجة . . وهذا الكتاب هو تاريخ الكفاح الشعبى فى مصر خلال نصف القرن الماضى ... هذا الكفاح الذى انجذب إليه سلامه ، فتأثر به وأثر فيه . . ويؤمن أعمق الإيمان أنه صائر حتما إلى ماسارت إليه أوروبا . . إلى الاشتراكية .

• نقل مضمون الصحافة المصرية ولغتها .. من الاهتمام بالموضوعات الممتعة التافهة ، واللعب بالألفاظ ، وامتداح الملوك والمماليك .. إلى الاهتمام بالحضارة الأوروبية والمبادىء الاشتراكية .

• يعتبره الرجعيون والمستبدون . . خصـــوم التقدم وحرية الشعب ، القلعة الأولى لدعاة الصناعة والديموقراطية .

• يرى قراء سلامه موسى الكثير من الأخطاء والمتناقضات فى أفكاره وهؤلاء القراء — أنفسهم لايرون أى خطأ فى أفكار كاتب ما من الكتاب الذين يستلهمون الماضى !! .

والعلة فى هذا أن القارىء لسلامه موسى يشعر بالتغير والتطور الذاتى ، ويحس اليقظة والوعى . . . فيلحظ هفوات سلامة الفكرية ، وقد يبالغ هذا القارىء فى تقديرها وتفسيرها .

أما الكاتب الآخر فإنه يتملق الأفكار السلفية التي تسود الحاضر وتعوقه ولهذه الأفكار قداستها ، فيشعر القارىء بلذة وتخدير يمنعانه عن كشف ما يكمن فيها من الرجعية والعفن .

- كتب كتاباً أو أكثر عن كل موضوع يهم الإنسان فى هذا العصر : كتب عن التطور ... والحب ... والثورات ... والأدب العربى ... والأدب الانجليزى المعاصر ... وسيادة العلم ... والنهضة الأوربية ... والقصص الروسى الحديث ... والحركة الهندية ... وحرية العقل ... والثقافة العصرية ... ومشاكل الشباب الجنسية والنفسية ... ومحاربة العنصرية ... والإنسان الذى أدرك ذاته فى الكون .. وسيطر على الطبيعة .. وحلم بالسلام الدائم .. وعمل على تحقيق مستقبل يخلو من الظلم والظلام .
- تتلخص دعوته فى : الثورة .. والصناعة .. والديموقراطية .. والاشتراكية ؟

١٩ أبريل سنة ١٩٥٦ — يوسف أحمد حموده

مقدمة

حوالى ١٩٢٣ كنت أحرر الصفحة الافتتاحية لإحدى المجلات الأسبوعية . وبقيت على ذلك إلى أواخر ١٩٢٩ . وكنت أتوخى فيها مخاطبة الشباب وأنبههم إلى حقائق الحضارة ومعانى الثقافة .

وكان استعدادى لهذا الموقف ، موقف الإرشاد للشباب ، أنى أقمت فى أوربا نحو خمس سنوات أتأمل وأفكر فى الأسباب والعوامل التى رفعت الأوربيين حتى حصلوا على الثراء والقوة والعلم فى حين تأخرنا نحن عن كل ذلك .

فكنت أكتب هذه الفصول فى شرح ما فهمت من هذه الحضارة الأوربية . وفى ١٩٣٠ جمعت بعض هذه الفصول وأصدرتها كتاباً بعنوان « الحياة والأدب » . وفى هذا العام ١٩٥٦ ، طلبت إلى « دار النشر المصرية » أن تعيد طبع هذا الكتاب . فعدت إليه كى أتصفحه وأحذف منه ما تغيرت قيمته أو سقطت بمرور هذه السنين . واخترت ما بقيت قيمته ، ثم أضفت الفصول السبعة الأخيرة التى كتبتها بعد ١٩٥٠ مما يتسق مع الفصول السابقة التى كتبتها قبل نحو ٣٠ سنة .

وحين أتأمل الكتاب أجد أن وحدة الهدف واضحة فى جميع فصوله . إذ هى تنوير وتبصير بالحضارة والثقافة ودعوة إلى التغير والتطور .

وأول ما التفت إليه ، حين كنت فى أوربا ، أن هذه القارة انما سادت سائر القارات بحضارة الصناعة التى تغذوها ثقافة العلم . وأنه ليس هناك من فروق بين مصر وبريطانيا أو مصر وفرنسا سوى هذا الفرق . وهو اننا نعيش على الزراعة فى الأكثر بينما يعيش الانجليز والفرنسيون على الصناعة . فهم أثرياء ونحن فقراء . وهم يعرفون العلوم ونحن نجهلها . وهم أقوياء ونحن ضعفاء . وإذا نحن أخذنا بالصناعة فإننا نصير مثلهم سواء فى القوة والثراء والعلم .

وكانت « نظرية التطور » ، بجميع مركباتها المادية والاجتماعية قد لابست تفكيرى منذ شبابى . فوجدت فيها إلهاماً ونورا . ودعوت إليها فى حرارة ، خاصة وأنى وجدت بلادنا تستمسك بتقاليد خانقة تعوق تقدمنا وارتقاءنا وتجرنا إلى الماضى بينما الأمم الناهضة تثب إلى المستقبل .

والمستقبل حياة والماضى موت .

وكانت للمرأة مقام أمامى فى كل تفكيرى الارتقائى لبلادنا . ولذلك كتبت وألفت الكتب فى ضرورة مساواتها بالرجل ليس

فى الحقوق فقط بل فى الواجبات حتى تختبر الدنيا وتعيش إنساناً مجرباً عارفاً حكيما كالرجل سواء . ولذلك يجب أن تزامل الرجل فى المدرسة والمصنع والمتجر والمكتب .

وجدت أن مكافحتنا للاستعمار الأجنبى لن تكون ناجحة كاملة إلا إذا كافحنا الرجعية المصرية الخانقة . ولذلك لم أهمل الدعوة إلى الآراء العصرية فى الأخلاق والعقائد .

ومنذ شبابى وأنا على يقين بأن الحضارة الأوروبية ليست هى الكلمة الأخيرة فى تاريخ الحضارات وإنما هى فترة انتقال من الانفرادية البغيضة إلى الاشتراكية السخية . ولم أنكر يوما ما هذا المذهب الذى جلب على كثيراً من المتاعب من دعاة الظلام من الرجعيين المصريين والمستعمرين الانجليز .

والقارىء لهذا الكتاب يجد آرائى مبسطة موجزة . فإذا شاء التعمق فليقرأ مؤلفاتى الأخرى ؟

١٩٥٦ سلامه موسى

فهرست

صفحة

٣ منهج وكاتب
١١ المقدمة
١٧ فتوحات العلم
٢٠ من هو العظيم
٢٣ حقوق الطفل
٢٦ روح التسامح
٣٠ كيف وماذا نقرأ
٣٣ الفتاة الحديثة
٣٦ فلنكن عظماء
٣٩ مصلحتك هى مصلحة الجماعة
٤٢ الغاية من الحياة
٤٥ ميراث الأبناء
٤٨ المرأة أساس الحضارة
٥١ سوط الاحتقار
٥٤ الشيخ الشاب
٥٧ الاستقلال الروحى
٦٠ لا جديد تحت الشمس
٦٣ هذه الدنيا
٦٧ الحياة الطفيلية
٧١ العلم والأدب
٧٥ أنخر الأثاث
٧٩ الروح الانجليزية
٨٣ تنقيح الصلاة الانجليزية

صفحة

٨٦ مارى
٨٩ هل اخترعت مصر الحضارة
٩٣ أغانينا
٩٦ فى الأدب العالمى
٩٩ تربية الفتاة
١٠٢ عدو الظلم والاضطهاد
١٠٦ القرية المصرية
١٠٩ قصيدة الحياة
١١٢ كيف نربى أنفسنا
١١٥ سعد والشبيبة
١١٨ فى الصحافة
١٢١ مصر مركز الثقافة
١٢٤ هزيمة الأدب السخيف
١٢٧ الإيمان بالانسان
١٣١ فى الحب
١٣٣ عندما تزيد حياتنا
١٣٨ كهنة من طراز جديد
١٤١ أربطوا شبابنا بالحب
١٤٥ ثلاث تهم توجه لسقراط
١٥٠ جو الحب
١٥٤ فلنعلم شبابنا الحب
١٥٧ أختر أرملتك

في
الأدب والحياة

فتوحات العلم

لو أن إنساناً أراد أن يعيش فى مفاجآت متوالية من مخترعات ومكتشفات لما وجد أوفق من هذا العصر الذى نعيش فيه . فلاجرم أننا نعيش فى عصر العجائب . ولسنا نعنى بذلك أننا أسعد حالا من آبائنا وإنما نحن ننظر إلى الحياة بخلاف ما كانوا ينظرون إليها . نحن ننظر إليها باعتبارها معملا كبيراً للتجارب نجرب فيها كل ما يخطر لنا فى بال فإن نجحت التجربة فذاك وإلا فنحن عائدون إلى تجربة أخرى ، ومن هنا كثرة ما يجد كل يوم فى ميدان الصناعة والعلوم . أما آباؤنا فكانوا ، كبعض الأمم الشرقية الآن ، يقنعون بما صنعه لهم السلف الصالح ولا يعارضون فى القديم المألوف . ومن هنا قلة اختراعاتهم .

هأنذا أحد الناس أذكر أنه قد جد فى حياتى أكثر من عشرة مخترعات ومكتشفات . لقد رأيت الأوتومبيل لأول مرة فى القاهرة وأنا طفل وعدوت وراءه مع سائر الأطفال لكى أنظر إليه وسمعت من حولى وهم يتعجبون من براعة هؤلاء الإفرنج الذين يجعلون الجماد يجرى فى الشوارع . ثم هأنذا قد سمعت بأذنى هذا العام وأنا فى القاهرة أصواتاً حملها الأثير بلا أسلاك من لندن .

أجل . أن حبل الثقافة متصل من السلف إلى الخلف . ولكننا فى حاجة من وقت لآخر إلى الشك فى حكمة هذا السلف وإلى الخروج على بعض مبادئه وإلى أن نجعل العقل فوق النقل . إذ بذلك ارتفعت أوربا . وبعكس ذلك تأخر الشرق . ومن هنا نجد أن عصر العجائب هو عصر الأوربيين أما الشرقيون فلا شأن لهم فى هذه العجائب .

أليست هاتان عجيبتين ؟ وهل أحتاج إلى ذكر الطائرات التى تحمل هذه الصحيفة أحيانا إلى بغداد ؟ أو هل أحتاج إلى ذكر عجائب التلغراف اللاسلكى أو إلى ذكر الذرات التى تخيل الأغريق وجودها وصار العلماء الآن يقيسونها ويزنونها ؟

ثم ماذا نقول عن المعالجة بالغدد التى فتحت فتحاً جديداً فى الطب وتكاد تجعل الشباب يغارون من الشيوخ والتى ربما سيطول عمر الإنسان بواسطتها إلى أكثر من مائه سنة ؟

أليس كل هذا عجباً ؟ ثم يجب ألا ننسى أعجب العجائب : روسيا التى محت الماضى من الوجود وصارت تنظر إلى الحكومة والعائلة والتعليم والمال كأنها أشياء قابلة للتجربة .

وما من تقدم حديث فى العالم إلا وكان نتيجته الخروج على المألوف وابتكار الشىء الجديد . ولولا هذا لما كان اختراع أو اكتشاف .

ولكن يجب مع ذلك ألا نغتر فنعتقد أننا فى جديدنا قد فقنا السلف وخرجنا عليه ؟ فإنما نحن نبنى على أسس . حتى ثوراتنا وانقلاباتنا إن هى إلا تطور كانت لهم فيه البديئة . فجميع بذور المخترعات الحديثة ظهرت فى القرن التاسع عشر وهذه البذور نفسها لم تكن لولا أن أبناء القرن الثامن عشر قد هيأوا لها التربة . وهكذا إلى من قبلهم .

من هو العظيم

حدث مرة أن جريدة الماتن استفتت قراءها عن أعظم رجل فرنسى خدم فرنسا ؟ فجاءتها الخطابات تترى من جميع الانحاء وجميع كاتبيها غيورون على أن يكون عظيمهم عظيم الأمة بأجمعها . وكان المنتظر أن نابليون سيفوز بأكبر عدد من الأصوات ولكن جاءت النتيجة عكس هذا المنتظر وظهر على قمة العظماء شخص قد لاتكون قد سمعت باسمه هو باستور .

ومن باستور هذا الذى أربت أصواته على الأصوات التى نالها نابليون ؟

باستور رجل وضيع الأصل اشتغل بالعلم فعرف الميكروب وأوجد مصلا لمرض الكلب وعالج كروم فرنسا من وباء كان يفتك بها واهتدى إلى طريقة لتطهير اللبن . وهذه الأشياء الوضيعة أدرك الشعب الفرنسى أنها أكبر من المعارك العظيمة التى خاضها نابليون ورفع بها شأن فرنسا الحربى . ولذلك حكم لباستور بالتفوق فى العظمة .

فالشعب الفرنسى يقول بصريح القول أن العظمة هى الفائدة التى تعود على الأمة من العظيم الذى ينشأ بينها . وعظمة نابليون

ليست سوى طبل أجوف رنان لا فائدة فيه . فان فرنسا كانت فى بداية تسلمه مقاليدها أكبر مما كانت عند ما انهزم وأسره الانجليز ونفوه بعد أن كبد الفرنسيين نحو مليون قتيل . وأما باستور فانه أنقذ ثروة الوطن ووقى الأطفال من الموت أوخفض آلام المرضى وفتح للطب فتحاً عظيماً . وإذا كان الأطفال يستهويهم ذكر نابليون ويتغنون بمدحه ويصلصون بسيفه فان الرجل الذكى لا يرى مندوحة من أن يحكم بالعظمة الحقيقة لباستور دون نابليون .

وما أحرانا نحن فى مصر أن نراجع أنفسنا ونعيد النظر فى تقدير عظمائنا ومقدار الفائدة التى عادت من كل منهم على بلادنا . ولكن كيف نقيس هذه الفائدة ؟

أن العظيم يجب أن يكون هو الرجل الذى كسب للأمة حقوقاً لم تكن لها من قبل . وهو الرجل الذى وجه العقول إلى وجهة وطنية مصرية بعد أن كانت قوميتها متلاشية فى فوضى الأفكار التى ورثناها عن المماليك . وهو الذى رفع التعليم . وهو الذى نظم للبلاد طرق الرى والصرف ورفع مستوى الصحة .

ولسنا نعين شخص هذا العظيم الآن وإنما يجب أن نقيسه بمقدار الفائدة التى عادت من وجوده على البلاد . فاذا قيل لك أن هذا الرجل أو ذلك عظيم فاسأل ماذا فعل للبلاد وما هو الربح الحقيقى الذى جنته منه ؟ ولو سئلت أنا هذا السؤال لأجبت بأن العظيم فى مصر

هو الذى ينقذ الفلاحين من البلهارسيا والانكلستوما . وهو الذى يعمم التعليم الحقيقى لا تعليم القرون الوسطى وهو الذى يخترع لنا طريقة لعمل الأسمدة الكيماوية وهو الذى يحقق استقلالنا .

وأخيراً هو الذى يوجه الأمة نحو الحضارة الأوربية . وبعبارة أخرى نقول أن العظيم هو من أشبه باستور بتواضعه ومثابرته على خدمة أمته فى الشؤون الصغيرة وليس هو نابليون بجميع مافيه من طبل أجوف رنان . فبلادنا مثلا مفتقرة إلى الصناعة يضيع قطننا كل عام بأبخس الأثمان ثم نعود فنشترى بعضه بأرفع الأثمان . فالعظيم حق العظمة هو ذلك الذى يستطيع أن يعلم الفلاح كيفية غزل القطن ونسجه ويوجد فى البلاد حركة صناعية تضمن لنا حياتنا الاقتصادية .

حقوق الطفل

الطفل أعجز مخلوق عن المطالبة بحقوقه ولكن له مع ذلك حقوقاً يجب على الهيئة الاجتماعية أن تحافظ له عليها . فهو الآن طفل وهو غداً رجل .

وليس من الحق أن نقول أنه يحصل الآن على حقوقه لأنه لو كان هذا حقاً لما مات من الأطفال عندنا ٤٠ فى الألف ولما شب منهم عدد كبير وهم عميان أو ناقصون من بعض الكفايات .

فللطفل حقوق أهمها أن يعيش فى صحة وفى رفاهية حتى يقضى أيام طفولته . وليست صحة الطفل بالأمر الهين فانها يجب العناية بها قبل أن يولد بسنوات إذ ليس كل إنسان جديراً بأن يكون أباً للأطفال . فالأبله والمريض كلاهما يجب أن يمنع من ولادة الأطفال لأن للطفل الحق فى أن يولد صحيح الجسم وما دام أبواه أو جداه مريضاً فهو لن يحصل على الصحة . ثم من حقه بعد أن يولد من أبوين سليمين أن يعنى به فى لباسه وغذائه وراحته . فلكل طفل أن يطالب المجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه بأن تكون أمه قد تعلمت وقد أحسنت تربيتها حتى لا تثقل عليه باللباس فترهقه ولا تهمل نظافته فتؤذيه ولا تفسد غذاءه بالكثرة أو بالقلة فينشأ ضعيف

الأمعاء عرضة لعدة أمراض . فللطفل أن يطالبنا قبل أن يولد بأن تكون أمه متعلمة لا تؤمن بالتمائم والرقى وتهمل الطب . وله أن يطالبنا بألا نسمح لامرأة بأن تلد ولداً إلى هذا العالم إذا كانت لاتزال تعتقد أن غسل العين الرمداء يؤذيها وأن وفرة الملابس على الطفل تمنع عنه البرد وأن الرأس يجب أن يترك بلا غسل حتى يعمه القرع

هذه هي حقوق الطفل لكي ينشأ صحيحا ، وله حق آخر في أن يعيش في رفاهية وفي راحة . فليس من حق الوالدين أن ينيماه على سرير قذر أو يفسدا عليه مزاجه بالضوضاء أو بحرج المكان أو بالإفراط في التقبيل أو التجميش . لأن الطفل ليس لعبة للأبوين يتسليان بها بل هو إنسان قبل كل شيء من حقه أن يعامل أحياناً بالجد وعلى الدوام بالعدل

ومن حق الطفل الذي لا تستطيع أمه إرضاعه أن تعنى الحكومة باللبن الذي يباع له في السوق . وليس معنى عناية الحكومة أن تجعل بائع اللبن المغشوش يدفع غرامة بسيطة يخرج بعد الحساب منها رابحاً . ولو كنا نحن البالغين نشتري الخبز مخلوطا بنشارة الخشب ولم نجد من الحكومة عقابا للخباز سوى الغرامة لقمنا بالثورة الجامحة عليها ، وليس الخبز المغشوش بأفسد لأجسامنا من اللبن المغشوش لأجسام الأطفال

لقد سمعنا كثيراً عن واجبات الأبناء للآباء أفما آن الزمان لأن

نسمع شيئاً عن واجبات الآباء للأبناء ؟ إن بين الآباء من يمارس قتل الأبناء على غير وعى منه ويظن مع ذلك أنه لن تتعلق به تبعة لأنه لم يقصد إلى موت أبنائه . ولـكن التبعة كلها فوق رأسه . فهو إذا كان مريضاً وجب أن يكف عن التناسل ويترك هذه المهمـة للأصحاء . وإذا كان جاهلا بتربية الطفل وجب أن يتعلم

إن فى البلاد جمعية للرفق بالحيوان . وكثيراً ما نجد ونحن بازاء أولئك الأطفال الذين يغطى عيونهم الذباب وتسيل خدودهم شحوبا وصفرة إننا فى حاجة إلى جمعية رفق بالأطفال تنزع هؤلاء الأطفال من آبائهم لأنهم غير جديرين بالإبوة غير قادرين واجباتها حق قدرها بل ولا شيئاً منها

روح التسامح

ربما كان القارىء يجهل أن النظام البرلمانى إنما يقوم على أساس التسامح وينجح بمقدار ما فى الأمة من روح التساهل فى الآراء والمذاهب . لأن هذا النظام يقضى بحكم الكثرة وخضوع القلة لها ريثما يدور الزمن وتعود القلة إلى كثرة . فلو تشددت القلة فى التمسك برأيها وأبت الخضوع لرأى الكثرة لانهدم النظام البرلمانى من أساسه وسادت الفوضى مكانه . ومن هنا تجد أن الأمم العريقة فى هذا النظام مثل انجلترا يختلف أعضاء برلمانها جد الاختلاف فى الراى فلا تسمع من أحدهم كلمة بذيئة فى حق الآخر . وهذا على خلاف ما يحدث فى الأمم التى جد فيها هذا النظام على أساس استبداد قديم سابق حيث تبلغ الخصومة السياسية حد الضرب والقتل كما كان يحدث إلى عهد قريب بين بعض الأمم التى تعيش فى البلقان .

ولكن إذا كان التسامح ضرورياً لنجاح النظام البرلماني فهو أكثر ضرورة لنجاح سائر مرافق الأمة . إذ لا أدب ولا تجارة ولا تعليم إلا بالتسامح . فالأدب لا يرقى بل لا يعيش إلا إذا أشرب القراء والكتاب روح التسامح . فإذا كان كل قارىء يقف مستعداً

لكى يضرب كل مؤلف لا يكتب وفق ما هو يهوى ويجب أن يؤلب عليه الناس لكى يقطعوا رزقه ويحرموه العيش ، لكسر كل كاتب قلمه وأقفرت الأمة من مصابيح الهدى التى تهديها. ولو كان كل كاتب يقف من نفسه « شاهد ملك » ليدل الحكومة على مآخذ كل كاتب آخر ويطلب إليها معاقبته لما بقى فى الأمة رجل واحد يكتب. وكذلك لو أننا تشددنا فى التجارة وسألنا كل من يعاملنا عن دينه ورأيه لما تبادلنا التجارة مع أحد. ولقد أصيبت أوربا عند ختام الحرب بمثل هذه النزعة فرفضت الاتجار مع روسيا لأنها شيوعية ثم تغلب عقلها على عواطفها وعادت فتسامحت وتبادلت وإياها المتاجر. واعتبر ذلك أيضا فى التعليم. فهذه نظرية التطور مثلا تدرس فى مدارسنا الآن فلو أن روح التعصب كانت تشمل برامجنا التعليمية لحرم أبناؤنا دراسة هذه النظرية العظيمة التى تعد مفتاحا لجميع العلوم والآداب والأديان.

فتقدم العالم يقتضى التسامح وأساس التسامح مع ذلك هو معرفة المتسامح بجهله كما أن أساس التعصب هو غرور المتعصب بمعرفته. وليس فى العالم حقيقة لا يمكن الشك فيها أو لا يمكن النظر اليها من وجهتين مختلفتين حتى أن اينشتين يشك الآن فى البديهيات ويكاد يقول إن مجموع اثنين واثنين ليس على الدوام أربعة.

فاذا كان الشك يبلغ هذا الحد فى البديهيات فكيف بالبحث فى

التاريخ أو الاجتماع أو السياسة حين يكون الرأى الجديد مخالفاً للمصلحة الشخصية لبعض الطوائف أو مناقضا للعادة المألوفة المحبوبة أو مصادما لملاذ الكسل التى يأبى المتنعم بها أن ينشط لدرس جديد .

فهل لنا أن نطلب إلى الشيخوخة المسنة أن تتمهل وتتسامح مع نشاط الشباب وأن تعرف أن الأمة تحتاج على الدوام إلى النظر إلى الأمام وإلى المستقبل كما تحتاج أحيانا إلى النظر إلى الخلف وإلى الماضى ؟

لن يضير الأمة أن يؤلف شبابها كتابا يخالف رأى شيوخها لأن هذا الكتاب ستتناوله العقول بالنقد والتمحيص فيزول غثه ويبقى ثمينه على مدى الزمن . فلنقتل الكتاب بحثا وفحصا ولكن يجب أن نترك المؤلف فلا نطلب أن نقطع رزقه لأن هذا الطلب الأخير هو من الخطط التى اندثرت بزوال القرون الوسطى حين كانت « محكمة التفتيش » تصادر من تتهمه بالزندقة فى إملاكه وتستصفيها .

إننا لا نزال جهلة بحقائق هذا العالم وجهلنا هذا يمنعنا من البت والجزم ولذلك يجب أن نتسامح فيما يقوله غيرنا لأننا لسنا من الثقة بآرائنا بحيث نستطيع أن نقطع بسخافة آراء الغير أو ضررها . ويجب أن نتذكر أن لكل جديد صدمة تشبه ما تلاقيه النفس لأول

ما تسمع لحناً جديداً . فقلما نستطيب اللحن الجديد لأول سماعنا إياه ولكن الاستطابة تعقب المعاودة . وكذلك الآراء الجديدة تصد عنها النفس كما تصد عن الزى الجديد ثم تستحسنه بالمعاودة والألفة . والتقدم والرقى كلاهما مستحيل ما لم تقبل الجديد وتتسامح فيه .

كيف وماذا نقرأ ؟

الناس رجلان أحدهما يحتال للانتفاع من وقته كأنه يجعل من الساعة ساعتين والاخر يحتال لاضاعة وقته بحيث يحيل الساعة إلى نصفها أو إلى العدم . وهناك وسائل عديدة عند هذا الفريق الأخير لقتل الوقت وتضييع الفرص وتقصير العمر حتى لتشعر من اتقانهم معرفة هذه الطرق أنهم يندمون على أنهم قد ولدوا إلى هذا العالم . ويمكنك أن تجيل النظر فى القهوات وتدرس بعض الألعاب حتى تتأكد أنها تمارس هرباً من الحياة وسامة من الدنيا وندماً على الوجود .

لسنا بسبيل الكلام مع هؤلا. وإنما نريد أن نتحدث إلى الفريق الأول الذى يحتال للانتفاع من وقته والذى لايندم على وجوده فى هذا العالم . فمن ضروب الانتفاع بالوقت واكتساب القوة باثارة الذهن نجـــد القراءة فى المكان الأول . وقد كانت القراءة من وسائل الرقى فى الأزمنة الماضية ولكنها كانت من الوسائل الثمينة التى لاينالها إلا المبالغون فى الجد وأبناء الأثرياء . أما الآن فهى ميسرة للجميع لا يتكلف طالبها سوى أقل المال أو لا يتكلف شيئا مطلقاً .

وسيأتى زمن مايعيش فيه الانسان ليقرأ ولا يكاد يوجد عمل فى العالم يكده ويملأ كل فراغه . بل يمنح كل وقته تقريبا لمثل القراءة والدرس .

ولكن كيف يجب أن تكون القراءة ؟ هل يجب أن نسير فيها ونسلك سبيلها على النحو الذى يسلكه لاعب النرد أو الشطرنج تزجية للوقت وفراراً من الحياة فنقرأ القصص تلو القصص وعشرات المقالات « السياسية » يرادف معناها فى الواحدة معانى الآخرى ؟

كلا . إنما يجب أن نقرأ لننتفع . فالمعرفة قوة والجهل عجز . فلنقرأ إذن لكى نعرف ونزداد علما بالاشياء ، لكى نزداد بذلك إدراكا للحياة وأحساسا بها . وليس فى مقدور كل منا أن يختبر جميع شئون هذه الدنيا اختباراً مباشراً إنما فى مقدورنا جميعا أن نكتسب علمابها عن سبيل الآخرين الذين اختبروها وأثبتوا اختبارهم بأقلامهم لمنفعتنا .

ومعنى هذا أنه يجب أن يكون لكل منا مكتبة فى منزله وأن يعد الكتب من ضروب الأثاث الضرورى للمنزل بل هى أكثر ضرورة من بعض الأثاث الذى ترتكم به بعض المنازل فى غير منفعة سوى الفخر الكاذب والأبهة السخيفة . فالكتب هى أثاث الذهن يتقلب فيها ويرتاح إليها ويستفيد منها ويستنير بمعارفها .

فيجب اذن أن تعمل عقولنا فى انتقاء الكتب والمجلات

والصحف فلا نقتنى إلا ما ينفعنا ولا نقرأ إلا ماهو ضرورى لنا مما يرفعنا فوق مستوانا ويزيدنا قوة. وخير أنواع التربية حين يربى الإنسان نفسه فيقيس كفاياته ويقدر ما يحتاج إليه من التثقيف لأنه عندئذ يحسن التقدير ويسير مع هواه فى انتقاء المواد. والهوى من أعظم الوسائل فى تسهيل الصعب وتمهيد الوعر ومن الناس من لايسعده الحظ بتربية مدرسية وافية ولكنه يجد من وقته الوسيلة لتربية نفسه بالكتب والمجلات إذا هو ثابر على القراءة وأحسن الاختيار فى اقتناء الكتب. وليست المدرسة إلا البداية للتربية الحقيقية فهى تغرس فى النفس (أو يجب أن تفعل ذلك) تلك النزعة التى تجعل كلا منا طول حياته طالبا للعلم ساعياً وراء الثقافة.

ولن يكون ذلك إلا بالكتب وتقليبها والنظر فيها واعتياد التنقيب والبحث. هذا إلى نزعة موفقة تحملنا على الجد والمنفعة لاالتسلية وإضاعة الوقت. ولسنا نقول أن قراءة الصحف السياسية تخلو من الفائدة وإنما نقول إن الإدمان عليها مع تكرار معانيها تضييع للوقت والمال معاً. إذ يجب أن نقرأ من التاريخ والشعر وسائر فروع الأدب والعلم ما ننتفع به وتزكو به عقولنا ويعظم به احساسنا للحياة، فقارىء التاريخ يضيف إلى عمره أعمار الأجيال الماضية وقارىء كتب السياحات يضيف إلى وطنه أوطاناً أخرى والمتعمق للعلوم يزداد بصيرة.

الفتاة الحديثة

عندنا في مصر طبقة من الكتاب إذا أعوزتهم مادة الكتابة عمدوا إلى موضوع المرأة فنعوا عليها تبرجها وفسادها وانحطاطها. وقد ألف القراء منهم هذه النغمة فلم يعد يبالي بها واحد منهم وقلما يقرأ أحد هذه المقالات الكثيرة التي تملأ الصحف بها أعمدتها عن المرأة لأن موضوعها ومضمونها قد عرفا وسئما معاً

ومضمون هذه المقالات أن المرأة الحديثة أكثر تبرجاً وأحط أخلاقاً من والدتها أو جدتها. وليس ينكر أحد إن في مصر وخاصة في القاهرة نساء متبرجات يسرن في ضوء النهار قبل الظهر وبعده بلباس السهرات مكشوفات أعلى الصدر وأعلى الظهر. ومنهن أيضاً من يضعن المساحيق على وجوههن ويصنعن الوشي المختلف والمضحك معاً للملابسهن. وكثيراً ما يكون الجهل داعية ظهورهن بهذه المظاهر. إذ هن لا يتعمدن هذا المظهر وإنما يجهلن المظهر اللائق ومقابلة المرأة القديمة بالمرأة الحديثـــة موضوع دائم الطلاوة يغرى الكتاب بالكتابه حتى في أوربا. فهناك ينعون على الفتاة الحديثة ترخصها في عادات كانت جدتها لا تجرؤ على اعتيادها مثل التدخين والمجاهرة بالرأى وتقصير الثياب وتضييقها وقص الشعر ونحو ذلك

ولكن للفتاة الحديثة من يدافع عنها ويقطع ألسنة السوء التي تعبث بشهرتها . فقد رد أحدهم على ماتتهم به وقابلها بالجدات القديمات فوجد أن الفتاة الحديثة على الرغم من انطلاقها في الحرية أكثر شعوراً بالمسئولية من جدتها وأكثر استعداداً لمواجهة الشدائد وأكثر اعتماداً على نفسها وأعرف بوسائل العيش الشريف منها . فقد كانت آداب الجدات محصورة فى الصمت وتكلف الادب أمام الرجال والاقتصار على أعمال البيت وكانت تلبس من الثياب الضافية ما يكفي الواحد منها لأن يفصل منه ثلاثة أو أربعة مما تلبسه الفتاة الحديثة . ومن يقف فى لندن عند فوهات أو محطات الأنبوبة (أى القطار الذى يجرى تحت الأرض) ويرى آلاف الفتيات اللواتى يكدحن للمعاش وهن مقصوصات الشعر متقلصات الملابس لا يسعه إلا احترامهن وإكبار نفوسهن . ولو كانت جداتهن فى مكانهن لقنعن بالقعود فى البيت والرضا بالدون من العيش ولكن هؤلاء الفتيات أطمع فى مسرات الحياة وأشجع على مشقاتها وأنزع إلى «الرجولة» منهن وأذكى عقلا وأخف يداً وقدما من أن يرضين بلزوم البيت مع الفقر والمسكنة فى حين يمكنهن الاكتساب بالعمل والجد

هذا فى لندن . والحال ليست كذلك فى القاهرة . ولكنها ليست من الخطر بالمقدار الذى يوهمنا به زعماء القديم من كل شىء . فقد سلمنا بأن فى القاهرة طبقة من الفتيات تتبرج عن جهل لا عن

قصد . والذى يدعونا إلى هذا الظن أن تبرجهن خلو من الذوق . ولو كان عندنا رأى عام مهذب يدرى بالأذواق والأزياء لـكانت لفتة واحدة من الرجال يزدرون بها هذه الأزياء تـكفى لأن تمنع الفتيات من التبرج منعاً باتاً . ولـكننا نقول أن الفتاة الحديثة فى مصر لاتزال مع ذلك أصح نظراً للحياة من والدتها أو جدتها . فهى تمشى الآن وحدها فى الأسواق معتدلة القوام مرتفعة الرأس فى حين كانت جدتها تمشى متعثرة مع الخدم . وهى تقرأ بينما كانت أمها جاهلة . وهى لا تبالى بالسمن فى حين أمها كانت ترهق أمعاءها بأكل المسمنات وهى ترى العالم بعينيها ولا تضع على وجهها سوى نقاب خفيف بينما كانت أمها تخفى عينيها عن العالم . فاذا قيل بعد ذلك أنها تداعب الفتيان فى الطريق فانه يجب على القارى أن يذكر أن المداعبة تحتاج إلى إثنين فاذا لمنا الفتاة وجب أن نلوم الفتى . وهو باللوم أحق لأنه هو البادى .

والناس يحبون مقابلة الحاضر بالماضى فيصغرون الأول ويكبرون الثانى . فتراهم يصفون القدماء بأنهم كانوا أحفظ للذمم منا وكانوا أعف فى الحرمات منا وكانوا وكانوا . وكل هذا كذب لا أصل له . فإن جدودنا مثلا رضوا بحكم المماليك والانجليز فـكانوا أجبن منا ورضوا بكثير من حكامهم المستبدين حتى أشرفت البلاد على الخراب . وقد زار أندلسى قبل نحو ٧٠٠ سنة بلادنا فذكر أن الفحش والزنا فى القاهرة لاحد لها وإن قذارة مدننا لا تطاق. فالقول بأن المرأة القديمة تفضل المرأة الحديثة لغو لا يقول به إلا الجاهل

فلنكن عظماء

لن تكون عظيما حتى تعد نفسك عظيما وتمارس العظمة . ولن تكون شريفاً حتى تعد نفسك شريفاً وتمارس الشرف . فالعادة والممارسة كلتاهما واجبة لكى تصنع الشرف أو العظمة أو ما يقابل هاتين الصفتين من الدناءة والحطة .

وأنت إذا توهمت نفسك عظيما ثم وقفت عند ذلك لما نلت من العظمة إلا الظل . ولكن إذا أنت توهمت العظمة ثم مارست بعض الأعمال العظيمة مهما كان مركزك فإنك لابد بالغ نوعاً من العظمة فى مستقبل أيامك .

فإذا كنت تتوهم العظمة فى الثروة فلا قيمة لتوهمك مالم تشرع فى جمع بضعة قروش . وأول المليون واحد . وإذا كنت تتوهمها فى العلم فاشرع فى الحال فى درس ما ترغب فيه . وإذا توهمتها فى السياسة فلا تقنط من أن تكون وزيراً وأنت ترى زمننا الديموقراطى يرفع العصاميين إلى مراتب الوزارة فيما يشبه الحلم . بل لقد قال أحد وزرائنا أنه حلم بالوزارة قبل أن ينالها . وليس لحلمه معنى سوى أنه كان شديد الاشتياق للحصول عليها فزاول

بعض صعابها حتى ارتقى إليها . وإذا توهمتها فى الصناعة فاشرع فى الحال فى تجاربها الأولى .

فالتوهم مفيد لأنه يعد النفس ويوجه قواها إلى الغرض . ولكن لا بد من المزاولة حتى يتجسم الوهم وينزل من رتبة الخيال إلى الحقيقة. ويجب ألا نخشى نقائصنا أو ما نتوهم أنه نقائصنا . فلا الفقر ولا الجهل ولا المرض ولا الآفة المعجزة نفسها تمنع العظيم من أن يحقق عظمته لأن الطموح يسهل كل عقبة ويفتح كل باب مستغلق وبعد ذلك تأتى المزاولة ومتى زاولنا شيئاً فنحن فى طريق الخوض فيه إلى النهاية .

لقد كان هابير رجلا أعمى فاجأه العمى فجزع له لأول صدمة ثم تنبه إلى أنه إنسان يجب ألا يرضى بالخضوع والاستسلام فأكب على درس النحل وصار بعد ذلك ممن يوثق بهم فى هذا الموضوع الذى يستعصى على معظم المبصرين . وهذا الدكتور طه حسين أصيب بالعمى وهو فى الثانية من عمره فما عاقه هذا عن أن يكون من أدباء مصر ومن أجرأ الكتاب فى طلب الإصلاح . وهو لم يبلغ هذا المبلغ لقوة خارقة فى ذكائه لأنه طامح إلى العلا مكب على الأدب .

فلنكن عظماء . ليكن لنا هدف عال نسدد إليه نشاطنا وقوانا ونوجه إليه طموحنا ولنذكر على الدوام أنه ما من إنسان بلغ رتبة

كان طموحه دونها . فان من يقنع بالقليل يناله ويقف عنده ولكن من يطمح لبلوغ الكثير يضمن القليل على أية حال والأرجح أنه ينال الكثير أيضاً . ولنتوهم العظمة فى نفوسنا ولو دعانا هذا إلى بعض الكبرياء. لأن من يمارس الكبرياء لا يجد بدأ من النزوع إلى العلا والتباعد عن الدنايا والنبوعن السفاسف . ولا ينقصه عندئذ إلا أن يزاول بعض مايطمح اليه ويشرع فى الخطوة الأولى وعندئذ يجد نفسه أنه قد بدأ السير فى الدرب الذى تنتهى اليه غاية طموحه .

فأنت أيها القارىء كما تتوهم فى نفسك . فاذا توهمت العظمة فأنت عظيم منذ تبدأ فى تحقيق توهمك . والعظيم لا يجزع وقت الهزيمة لأن نفسه طامحة مستبشرة بالنصر القريب فهو يستهين بآلامه ويستأنس بأحلامه حتى إذا سنحت الفرصة انطلقت قواه فحقق ما يريد . ولا يهولنك أن يقال لك أنك تمنى نفسك وتستنيم للأحلام لأنه ما من إنسان بلغ رتبة عظيمة إلا وكان يحلم بها السنين الطوال قبل أن يحققها .

مصلحتك هى مصلحة الجماعة

إنك تعمل ضد نفسك إذا عملت لنفسك فقط . لأن مصالحك متعلقة بمصالح الجماعة التى تعيش بينها بل بمصالح العالم كله وهذه حقيقة عرفها بعض الدول التى كانت تحارب ألمانيا فإنها ظنت أنها بالقضاء عليها تنفرد هى بسلطتها فى العالم . ولكن خراب ألمانيا عاد بالخراب على أعدائها أيضاً لأن أمم العالم متضامنة لا تقدر إحداها على أن تبيع شيئاً مالم تقدر الأخرى على أن تشتريه . فاذا عجزت الأخرى عن الشراء عجزت الأولى عن البيع . فالنية السيئة التى انطوى عليها بعض الدول لألمانيا عادت عليها هى نفسها بالضرر نفسه الذى عاد على ألمانيا بل ربما بأكثر منه .

وقد بدأ الانجليز يدركون مغزى آخر لهذه النظرية فى أحوالهم الداخلية فقد رأوا من الرواج فى الولايات المتحدة ما تعجبوا له ولم يفهموا سره إزاء الكساد الذى يرونه فى بلادهم . وأخيراً عرفوا أن زيادة أجور العمال فى أمريكا تزيد قدرتهم على الشراء فتروج الأعمال ويعم الرخاء أخذاً وعطاء . أما فى انجلترا فان كل محاولة لانقاص الأجور تنشر الكساد بين الناس لأن العمال وهم كثرة الأمة لا يستطيعون الشراء . فأصحاب المصانع الذين يريدون رواج

مصنوعاتهم لا يمكنهم أن يحققوا ذلك ما داموا يعملون فى الوقت نفسه على إنقاص أجور عمالهم . فمصلحة الممول هى مصلحة الأجير ولا يمكن للممول أن يطلب السعادة لنفسه إذا كان يطلب الشقاء لأجيره لأنهما متضامنان .

وأنت أيضاً أيها القارىء لا يمكنك أن تخدم مصالحك ما لم تخدم مصالح الأمة التى تعيش فيها ولا يمكنك أن تسعد اذا كانت الجماعة التى تعيش حولك شقية . لأن شقاءها يعود عليك بالذات فأنت لكى تعيش عيشة صحية ولكى يسلم أطفالك من الأمراض يجب أن تنتشر الصحة والعافية بين الجماعة التى تعيش بينها وتنتفى الأمراض من بينها . لأنه لن يكون أولادك فى أمن من المرض مادام أولاد جارك مرضى . فعنايتك بأولادك تقتضى العناية بأولاد جارك حتى لا تنتقل عدواهم إليك . ولن تستطيع أن تشرب ماءاً نظيفاً خالياً من جراثيم المرض حتى تحتم وجوب نظافته لجميع سكان البلدة التى تعيش فيها ولن يكون ولدك آمناً فى الطريق من لص يسرقه أو ترام يدهمه أو غبار يملأ عينيه أو منظر يفسد أخلاقه ما لم تسع لجميع الأولاد لكى يكون طريقهم آمناً أيضاً .

فأنت بوسطك لن ترتفع أكثر مما يرتفع معك ولن ينزل هو حتى يجرك وراءه . فمصالحنا الذاتية تقتضى أن ننظر إلى مصالح الآخرين لأن خيرهم خيرنا وشرهم شرنا .

لقد كنت من مدة أقرأ أحد كتب التاريخ لمسكويه . وهو يروى فيه تاريخ بغداد والخلافة وقت التدهور والزوال حين كانت اللصوصية سلم الإمارة والحكم . وقد روى تاريخ أحد الأمراء وكيف أدى سوء سياسته إلى خراب بلاده . فقال إن هذا الأمير كان إذا جبى الضرائب الفادحة وعجز الأهالى عن الدفع ارتهن أملاكهم بما ينكسر عليهم من الضرائب فإذا غلق الرهن ولم يدفعوا اشترى منهم هذه الأملاك بأبخس الأثمان بالرهن أو بقليل زيادة عليه . وانتهت هذه الخطة العجيبة بأن أصبحت مملوكات الأهالى كلها ملك هذا الأمير السافل . ولكن ماذا حصل لديه بعد ذلك ؟ بعد أن أصبح صاحب البلاد ملكا وملكا قل دخل الحكومة ونقص عما كان وقت أن كانت المملوكات ملكا للأهالى وأخذت العقارات تتدهور نحو الخراب فلا يتحرك الأهالى لترميمها لأنهم لا يملكونها وفشا الكساد وعم الفقر جميع الناس .

الغاية من الحياة

ذكر الأديب المعروف كابيك أنه عرف أحد أثرياء أميركا يقضي وقته في السفر على القطار أو الباخرة وهو يملي على كاتبه خطابات خاصة بأعماله . وإذا قعد في الأتومبيل عقد مجلسا للمفاوضة في شأن خاص بعمله أيضاً . وإذا أكل أو تنزه أو تناول الشاى لم ينس الكلام عن أعماله

ويخشى كابيك أن تتأمرك أوربا فتكبر من شأن النجاح المالى وتجعل الغاية من الحياة إحراز الثروة فقط

وكلنا يجب أن يخشى ما خشيه كابيك لأننا معرضون على الدوام لفتنة المال تسارقنا شهرته فتعمى أعيننا عن القصد من الحياة وتستغرق جهودنا كلها فترانا وقد بلغنا الشيخوخة ونحن نتساءل : هل عشنا حياتنا وتمتعنا بها على هذه الأرض أم قضينا عليها عمرنا فقط وقطعنا السنين الطويلة في جمع المال ؟

ولسنا بذلك نقلل من شأن المال . فان العالم لم يعرف وقتاً بلغ فيه المال من القوة والقيمة مثلما بلغ في وقتنا هذا . فليس من الممكن أن نعيش معيشة صحية أو أن نربى أولادنا أو أن نثقف أنفسنا أو أن نضمن الهناء لوقت الشيخوخة مالم نستند في ذلك كله إلى جدار قوى

من الذهب . فالمال قوة لايحتقرها إلا رجل أبله

وإنما عبرة كلامنا أن المال ليس كل شيء فيجب ألا يستغرق كل نشاطنا . وفى المال خاصة وهي إننا إذا بلغنا حداً معيناً لم نستطع أن نزيد مقدار تمتعنا به . فمن المعقول أن الغنى الذى يبلغ دخله ألف جنيه يمكنه أن يتمتع بالحياة أكثر كثيراً من ذلك الذى لا يحصل إلا على دخل مقداره مائة أو مائتا جنيه . ولكن صاحب الألفين لا يتمتع أكثر من صاحب الألف . وذلك لأن متع الإنسان نفسها محدودة فلسنا نستطيع أن نأكل كثيراً أو نحب كثيراً لأن أموالنا كثيرة . وليس يسرنا أن ننام على سرير من الذهب أو أن نرى عشرين خادماً فى البيت

إنما نحن زائرون لهذه الدنيا نقضى فى فندقها الكبير نحو سبعين سنة فيجب أن نتمتع بما فيها مدة إقامتنا . ولسنا ننكر أن نظام هذا الفندق يحتم علينا تحصيل المال فيجب لذلك أن نحصله ونقضى به ثمن تمتعنا ولكن يجب ألا نجعله غاية حياتنا

فالمال وسيلة وليس غاية . فيجب أن يكون لكل منا غاية فى حياته غير جمع المال . وأشرف الغايات أن يرقى الإنسان نفسه ويعمل لرقى من حوله . وهو إذا جعل هذا العمل غايته من الدنيا وجد حياته حافلة بالمتع العظيمة التى تشغل ذهنه وتملأ وقته وتشيعه إلى القبر مسروراً بما أدى فى هذا العالم . وإذا فكر الإنسان فى الرقى

فانه يفكر بالطبع فى عدة أشياء أخرى : فى التعليم والصحة والدين والأدب والحضارة والبر والاكتشاف .

والاشتغال بهذه الأشياء أمتع للنفس من الاشتغال بجمع المال وبرهان ذلك ظاهر وهو أننا نرى أناساً يضحون براحتهم وأنفسهم ويموتون فى سبيل الدين أو الاكتشاف العلمى أو اختراع آلة . يفعلون ذلك كله ويقاسونه . وقد أخذتهم لذة الرقى فلا يبالون بما يقاسون ، ولم نسمع قط أن رجلا ضحى بنفسه فى سبيل جمع المال .

إنما اللذة العليا والتمتع الحقيق أن نرى أنفسنا كل يوم نرتقى ونجارى التطور فى غاياته السامية فنتطور نحن أيضا ، ففى نفس كل منا شهوة عنيفة للتطور هى أصل الثورات الاجتماعية والاكتشافات والاختراعات وكل مايرفع الإنسان .

ميراث الأبناء

منذ مدة نقلنا عن أحد أغنياء الانجليز الذى حرم أولاده من الميراث وقال فى وصيته : أنه ليس من تقاليد عائلته أن يثرى واحد فيها من غير جده وسعيه . وهو قد أدى واجبه ورباهم وعليهم بعد ذلك أن يسعوا .

وهذا شذوذ وغلو فى تعليم الأبناء الاعتماد على النفس . ولكن التربية المتقنة والعوائد الحسنة التى يكسبها الأبناء من الآباء ميراث كبير قد يفوق أحياناً جميع المزايا التى يمتاز بها من يكون ميراثهم الأموال الجزيلة . وهل يمكن انساناً أن ينكر قيمة التربية المدرسية مثلا وما تستتبعه من مزايا لا يحصل عليها المحرومون منها ؟ أو هل ينكر أحد قيمة العوائد الحسنة التى يكتسبها الشاب من والديه كالمواظبة والنظافة والقناعة فى الطعام والشراب وكراهة المسكرات أو التدخين أو بذاءة اللسان ؟

إن القدوة هى أكبر عامل فى التربية وليس أحسن من أن يرى الابن القدوة الحسنة فى أبويه فان سن الطفولة والصبا والشباب هو سن الانطباع والتكييف والتخلق فاذا وجد الابن فى أبويه مثلا صالحاً نشأ هو أيضاً صالحاً يكره بطبعه المفاسد ويصد عن المغاوى

ولكن هناك ما هو أهم من التربية وهو الاستعداد للتربية .

لأن الأبناء لا يستوون فى الكفايات الطبيعية وان استووا فى جميع ظروف التربية .

فأكبر ميراث يرثه الابن من الأبوين هو هذه الكفاية الطبيعية التى يولد بها والتى يستعد بها لقبول التربية واكتساب التجارب . وبعبارة أخرى نقول ان أكبر ميراث يرثه الابن هو صحة الجسم وسلامة العقل .

وأنت أيها القارىء لا بد أنك عرفت فى حياتك كثيرين من الوارثين ورثوا المال عن أبويهم ثم أضاعوه فى سنوات قليلة . ولا بد أنك تساءلت عن العلة فى هذا السفه فى الأبناء مع الحرص الشديد فى الآباء . وقد يكون هناك أكثر من علة واحدة ولكن العلة الكبرى هى أن الابن لم يرث من أبويه كفاية طبيعية تضمن له سلامة المال الذى ورثه أو استثماره والزيادة عليه .

ويرجع ذلك كله إلى عدم العناية بانتقاء الزوجة فان كثيرين فى بلادنا الشرقية لا يعرفون من الفتيات قبل الخطبة إلا القليل وذلك لقلة الاختلاط والمعاشرة فإذا تم الزواج وجد الزوج أن شريكته فى الحياة ناقصة العلم بطيئة الادراك على حدود الغفلة أو قد تعدو الغفلة أحياناً إلى البله . وقد يكون الزوج فى غاية الذكاء والحصافة. ولكن الأبناء ليسوا أبناء آبائهم فقط فان نصف ذكائهم يرجع إلى

أمهاتهم فإذا كانت الأم مغفلة أو بلهاء فأولادها يمتون بعرق إليها ولا تنفعهم مزايا الأب أمام نقائص الأم .

وهذا علة ما نراه من خيبة بعض الوارثين فى الحياة وإضاعتهم أموال آبائهم . فإنهم ورثوا المال والعقار ولكنهم فقدوا أهم ما كان يجب أن يرثوه من كفاية طبيعية وحصافة أصلية فى النفس .

والآن نقول إنه إذا كانت أهم غاية اجتماعية للزواج هى النسل وجب أن يعنى كل من الزوجين بانتقاء الآخر من حيث سلامة الجسم والعقل أكثر من العناية بالمال أو الجمال أو غير ذلك من الاعتبارات . ولا يكون ذلك إلا إذا عاشر الخطيب خطيبته عدة أشهر قبل الزواج وعرف مقدار ذكائها واتجاه حديثها ونزعاتها التى تنطق بها حتى فلتات لسانها .

لقد قيل إن تربية الأولاد تبتدىء قبل ولادتهم وذلك بالعناية بالأم حتى يولد الولد صحيحاً مستكملا مدة حمله . ولكننا يجب أن نزيد على ذلك ونقول انه يجب العناية بانتقاء الزوجة أيضاً حتى تكون سليمة الجسم ذكيـــة العقل لكى يرث عنها لبنهـا هاتين الصفتين الثمينتين .

وإنى لا أرى شاباً صغير الرأس دميم الخلقة طائش الحركة مخبول المشيئة إلا وأتعجب من ذينك الأبوين الخاطئين اللذين جلباه إلى إلى عالم مزحوم بالناس ثم أتعجب من حكومة أذنت لهما بالزواج

المرأة أساس الحضارة

روت الصحف الانجليزية هذا الشهر حادثين غريبين لكل منهما مغزى يجب أن يفقهه القارىء المصرى ويطبعه فى ذهنه طبعاً لا ينمحى . فالحادث الأول أن فتاة أميركية عبرت بحر المانش سباحة وهذا البحر أو المضيق يبلغ عرضه ٣٦ كيلو متراً وكان أبو الفتاة فى زورق يشجع الفتاة على العبور ونجحت الفتاة وانتصرت على الأمواج وأخذت الصحف تنشر صورها معجبة بقوتها وجرأتها وثباتها .

هذا حادث . وذكرت أيضاً حادثاً آخر خلاصته أنه يموت فى كلكتا المدينة الشهيرة بالهند نحو ١٠٠٠٠ شخص بالتدرن كل عام وأن نسبة الوفيات بين الجنسين هى ست من النساء إلى واحد من الرجال . وبعبارة أخرى تقول هذه الصحف أنه يموت بالتدرن فى تلك المدينة العظيمة فى كل عام نحو ٨٥٠٠ امرأة و١٥٠٠ رجل . وعزت الصحف هذه الزيادة العظيمة فى وفيات النساء إلى العادة المتبعة فى الهند من حجاب المرأة ومنعها من الحركة والسعى واضطرارها إلى الانزواء فى عقر دارها بعيدة عن ضوء الشمس حيث تعيش فى خمول ودعة لا تتحرك عضلاتها ولا ينشط دمها . ومثل هذه الحال داعية إلى تفشى مكروب التدرن فى جسمها

ومغزى هذين الحادثين هو مما يحزن له كل من يرغب فى خير

الشرقيين لأن معناه أن الغرب يقول برياضة المرأة وأن الشرق يقول بخمولها . وأن نظرية الغرب هى نظرية الحياة والصحة والعافية والقوة وأن نظرية الشرق هى نظرية الموت بالتدرن والضعف والمرض

وعبرة ذلك كله لى ولك أيها القارىء أن نعرف أن المرأة هى أساس الحضاره الآن وأن الفرق بين انجلترا السائدةوالهندالمسودة هوفرق بينالمرأة الانجليزية التى تمارس الرياضة وتقوى، وبينالمرأة الهندية التى تنزوى وتتحجب وتضعف . ولهذا الفرق صدى فى جميع أحوال الأمة فى خلق الرجال وتعليم الأطفال وفى نظام البيت ودستور الأمة وفى شىء آخر حتى فى الآداب والفنون

ولم لا يكون كذلك ؟ أليست المرأة هى الأم وهى التى تربي أطفالها فاذا كانت تـكبر من شأن الصحة والقوة جعلتهم يكبرون من شأنهما أيضا ؟ أوليست هى ربة البيت بها ينتظم وبها تنضبط أحواله من مال واقتصاد ؟ فاذا كان البيت مهد الحضارة لأنه المدرسة الأولى التى يتربى فيها المرء وهو أيضاً المملكة الصغيرة التى يتعلم فيها الصبي ضبط النفس وأدب المعاشرة وعادات النظافة والمواظبة والمثابرة فان المرأة التى هى محور البيت هى أساس هذه الحضارة . وإذا اختل الأساس كما هو فى ذلك المثال الذى ذكرناه عن الهند

اختل البناء وإذا صح شادت الأمة بناءها شامخا مشمخراً كما هو فى بريطانيا أو أميركا .

ويؤيد رأينا الابحاث الحديثة فى النفسلوجية التى تثبت أن أعمق الآثار فى نفوسنا هى تلك التى تتلقاها فى طفولتنا وصبانا بالمنزل . وبمعنى آخر هى تلك الآثار التى تنطبع فى أذهاننا بالقدوة والحديث من أمهاتنا . وليس شيء نتعلمه فى المدارس أو نتلقاه من العالم بعد خروجنا من المدارس له من الأثر ما للأم فى النفس ، وليس وسط يؤثر فينا أن شراً وأن خيراً ما يؤثره المنزل فى طباعنا وعاداتنا . وما المنزل سوى المرأة .

فالأمم النشيطة الجريئة العاملة الدائبة فى العمل ترجع صفاتها الحسنة هذه إلى ما عندها من أمهات لهن هذه الصفات . والأمم الخاملة الناكصة المريضة ترجع صفاتها السيئة هذه إلى أمهاتها أيضا .

وبعد فأيتهما أفضل وأحق بالحياة ؟ أتلك الفتاة التى تسبح ٣٦ كيلو متراً بين الأمواج المتلاطمة أم تلك التى تنزوى وتتحجب وتخمل حتى تمرض بالسل ؟

سوط الاحتقار

يعمل الاحتقار فى الناس أكثر مما يعمله الخوف . ومعنى هذا بكلام آخر أن الناس يحسبون للرأى العام ويستحيون من الناس أكثر مما يخافون من القوانين . بل نحن نخاف القوانين لا لأننا نتألم من السجن بل لأننا نخشى احتقار الناس لنا إذا عرفوا أننا قد سجنا .

فإصلاح الأمة يرجع فى الأكثر إلى قوة الرأى العام أكثر مما يرجع إلى القوانين . لأن الرأى العام سوطاً شديد الوقع غائر الأثر هو سوط الاحتقار به نستطيع أن نؤدب الناس ونعلمهم ونوجه نشاطهم إلى وجهات نافعة .

ولكن إذا اختل الرأى العام وساءت أحكامه صارت القوانين كلها فى حكم العدم أو ما يقارب ذلك . فشرائع بلادنا مثلا تعاقب المتجرين بالحشيش ولكن الحشيش سيبقى والحشاشون سينعمون بهذا السم ماشاؤوا لأن الرأى العام لا يحتقرهم .فلو أن حشاشا وجد رجلا يبصق فى وجهه مرة أو يطلب اليه ألا يعرفه أو منعه من دخول منزله لما تجاسر فى القطر المصرى كله حشاش واحد على اقتناء هذا السم الذى يزود مارستاناتنا بنصف مرضاها .

ولو أن ضابط الشرطة الذى يعتدى على الناخبين يرى من

الناس عين الاحتقار والاشمئزاز من هذه السفالة لما استطاع مهما كانت المكافأة المالية التى ينتظرها أن يرتكب هذا الجرم ، لأنه إنما يقصد من الترقى فى المناصب ومن الحصول على المال تلك الوجاهة التى يتوخاها بل أهل بلاده فاذا وجد منهم مقاطعة واشمئزازاً واحتقاراً لما تجرأ على ضرب ناخب

وقل مثل ذلك فى الجرائم التى ترتكب فى الريف وتنفى الأمن منه فان المرتكبين الحقيقيين هم سكان الريف أنفسهم لأنهم لا يحتقرون هؤلاء المجرمين بل يروون حكايات سطوهم وانتهابهم بالإعجاب كأنهم أبطال حتى أن المجرم ليسجن وهو مرفوع الرأس كأنه بطل.

وقد كانت الرشوة إلى عهد قريب يتسامح فيها الجمهور ولا يعدها جريمة فكانت لذلك كثيرة الشيوع لأن مرتكبها كان يعتقد أنه لن يفقد كرامته أمام بنى وطنه إذا تلبس وثبتت عليه . وهو إلى حد ما لا يزال كذلك وفى هذا افساد كبير للإدارة . ولن تصلح هذه الادارة حتى يسلط الجمهور سوط احتقاره على جميع من ينهبون الحكومة بأية صورة .

ولقد كتبت الصحف كثيراً عن ضرورة اقبال الشباب على الأعمال الحرة . ولكننا نعتقد أن أكبر ما يمنع إقبال الشباب عليها هو احتقار الجمهور لها . فلو أن الشاب وجد ان كرامته إذا كان صاحب قهوة أو حانة أو مطعم محفوظة مصونة فى عين الجمهور كما

تصان إذا توظف فى الحكومة لما أحجم عن مثل هذه الأعمال الحرة ولكن أكبر ما يجعله يحجم عنها هو احتقار الرأى العام لها فإننا مازلنا نجرى على طبائع الاستبداد القديمة فى إكبار كل مايتصل بالحكومة واحتقار ما عداها وقد نزل الينا هذا الاعتقاد من السلف الذى كان يرى فى الحكومة سلطاناً أى سلطان للاستبداد بالأفراد والنهب والتسخير . وسنعيش مدة طويلة وشبابنا عالة على الحكومة حتى يترقى الجمهور ويعرف للعمل الحر قيمته ويحترم القهوجى الشريف كما يحترم المأمور السافل الذى يضرب الناخبين لكى يترقى ويكرم صانع الأحذية كما يكرم المحامى الذى يشكو الآن من قلة الأعمال ويطلب منع دخول محامين جدد فى مهنته »

إن للجمهور سوطا قويا هو سوط الاحتقار الذى يستطيع أن يسلطه على الخامل والسكير والمجرم والزانى والمرتشى والمتزلف فيصلح بذلك أخلاق الأمة بما لاتستطيع الشرائع المكتوبة أن تصلحها الآن حياء الناس أكبر من خوفهم فهم إذا رأوا عين الاحتقار انزووا أو تصاغروا وساروا على النهج القويم .

الشيخ الشاب

يعيش فى أيامنا هذه شيخ يبلغ الثمانين فى عدد السنين ولكنه فى الجراءة والنشاط وفى حرارة القلب وهمة النفس شاب جدير بأن يكون طرازاً للشباب .

هذا الشيخ الشاب هو كليمنصو وزير فرنسا ومن رجالات الدول العظام فإنه بعد أن عقد اكليل الغار على رأس وطنه وأتم الصلح مع ألمانيا ونال من الشرف والمجد أكبر ما يطمح اليه فرنسى قصد إلى بيته فى الريف لا ليقضى فيه أيامه الأخيرة أيام الشيخوخة الورعة إلى جانب المدفأة والمسبحة بل ليجدد فيه حياة الجهد والتفكير والتأمل بعد حياة الجهد بالعمل السياسى .

فكليمنصو لا يشيخ بل يتطور فى خدمة بلاده . فقد ناداه صوت الوطن مدة الحرب فلبى نداءه وصرف مجهوده إلى خدمة الحرب وها هو ذا يناديه للوطن أيضاً بل يناديه العالم إلى الخدمة المفروضة على كل حى فهو الآن يخدمه بذكائه . أما الشيخوخة فلا يذكرها ولا يتعلل بها للراحة بل هو لا يؤمن بأنه شيخ فإن ثقته بنفسه وقوة رجولته تلهمانه نشاط الشباب . ونذكر عنه حكاية بهذا الصدد مؤداها أن الدكتور فورنوف عرض عليه أن يجرى له عملية استرداد الشباب التى تعمل للشيوخ فأجاب على الفور : لست شيخا .

ثم هو وهو هذه السن يعمد إلى كتب الأغريق وينفض عنها غبار ألفى سنة لـكى يدرس حياة الخطيب ديموستنيس يستخرج منها موعظة نافعة لبلاده وللعالم .

وهو الآن يكتب مقالات متتابعة فى إحدى الصحف الفرنسية يضمنها آراءه التى اختمرت بالتجارب العديدة التى مرت به فى حياته وماذا يقول فيها ؟

يقول هذا الشيخ الذى بلغ الثمانين ما يجب أن يفقهه كل شاب من الثقة بالنفس والـكبرياء والرغبة فى الانتفاع والتجدد . يقول مثلا : « يجب أن نلقى مرساتنا ونستقر على صخرة المعرفة »

وأيضاً « كل يوم يمر بى هو برهان لى على انى أجدد نفسى بنشاط عقلى . . . ولست أعرف شيئا كثيراً ولـكنى أتقبل ما أعرفه بكبرياء كما أتقبل نتيجة معرفتى . . . »

فهاك إذاً رجلا لا يحمل المسبحة خائفا مذعوراً وهو فى سن الثمانين بل يعتمد على نفسه ويدرس العالم ويرضى بنتائج درسه ويسكن اليها .

ثم هو ينصح للشباب . لك أيها القارىء بقوله : « لـكى لا تحصل على دون ما ترمى اليه يجب أن تسمو إلى أكثر مما تستطيع » .

وليست حياة كليمنصو خلواً من النقائص وقد تـكون وطنيته الحادة أكبر نقائصه . ولـكن فى ما نقلناه من أقواله ما يصور للقارىء

تلك الشخصية القوية التي تبدو من حياته وأعماله وتثبت اخلاصه لنفسه ولوطنه ومحاولته فى أن يعيش إنساناً مستقلا ينفع العالم وينتفع به . وحسبه شرفا قضية دريفوس التي واجه فيها الرأى العام وناضل فيها العصبة الفرنسية لمصلحة الحق . فقد كان دريفوس ضابطا يهوديا بالجيش اتهم بالجاسوسية وسجن من أجلها وكان كليمنصو يجارى الرأى العام فى بداية التحقيق ثم تبين له أن الرجل مظلوم وأن التهم مزورة عليه . وكان فى ذلك الوقت يحرر صحيفة الأورو فانقلب يدافع عنه بكل قواه وينشر فى صحيفته خطاب زولا المشهور بعنوانه « اتهم » وكان كليمنصو هو صاحب هذا العنوان المثير

فما أمجد هذه الحياة التي يعيشها الإنسان فى الدفاع عن الحق ومكافحة التعصب ثم الدفاع عن الوطن وخلال هذه الأعمال لا يكف عن اكتساب المعارف التي يسكن اليها راضيا بنتائجها . له من كبريائه الانسانى ما يجعله يستقر إلى ما يبديه اليه عقله دون ما يسام من الأساطير القديمة ويعيش طول حياته نشيطا مجاهداً يلعب الألعاب الرياضية فى شيخوخته كأنه شاب ويقاطع الخمر والتبغ لأنه يراهما دون رجولته وسيطرته على نفسه

إن مثل هذا الشيخ يجب أن يكون قدوة للشباب والشيوخ . يجب أن نعيش طول حياتنا فى جهاد ضد الرذائل وفى اكتساب للمعارف والعادات الحسنة وفى خدمة لاتنقطع للوطن والعالم وكل ذلك فى كبرياء يجعلنا نعرف كرامتنا ونؤثر الموت الشريف على الحياة الدنيئة .

الاستقلال الروحى

يروى التاريخ عن أحد أئمة الدين انه عاش طول عمره مؤمناً تقياً يخلص فى عبادة ربه ، ثم دب فى قلبه الشك فلم تطق نفسه وقفة المتردد المرتاب فكان يدعو الله قائلا : اللهم ألهمنى إيمان العجائز .

وإيمان العجائز هو كما يعرف القارئ، إيمان التسليم والتصديق بل قل هو إيمان الخوف والضعف لأنه إذا لم تكن العجوز خرفة تصدق كل مايقال لها فلا أقل من أن تكون وجلة تقترب من ساعة الموت وفى قلبها وجيب الخوف فهى لا تجادل ولا تعارض .

ومما يدعو إلى الاغتباط أننا قد عدونا هذا الطور . فليس منا من يحب أن يلهمه الله إيمان العجائز لأنه يرى هذا دون كرامته الإنسانية وهو يجد فى مواجهة الحقائق مع مافيها من ألم الشك سروراً لايجده ولا يحب أن يجده فى التسليم بإيمان العجائز .

وليس معنى هذا أننا أقل إيمانا من السلف الصالح وإن كنا أكثر شكا منهم فيما اعتقدوه صوابا . وإنما نحن نختلف عنهم من حيث أننا أكثر رجولة منهم فى مواجهة الدنيا كما هى والسكون إلى حقائقها والاعتماد فى كل ذلك على عقولنا لا على ما نؤمر به ويشار به علينا .

كان أسلافنا يؤمرون بالإيمان بأحد الأديان أو العقائد فيطيعون فكانوا يسأمون العقيدة سلطة خارجية. ولكننا نحن نحاول أن نؤمن

بسلطة داخلية بما توحيه الينا ضمائرنا . نؤمن عفو القلب والعقل ونحن أحرار لا نخشى عقابا ولا نبالى بحساب سوى حساب الضمير .

ونحن فيما نتعناه ونكابده من هذا الإيمان الداخلى وآلام التردد والحيرة أشرف وأشجع من سلفنا الصالح الذى كان ينشد « إيمان العجائز » .

فى العالم الآن طائفة من الناس قد أخلصت النيه لهذا العالم الذى هو وطننا الأكبر وعرفت موقفها فيه وما عليها من تبعات نحوه . ولكنها مع إخلاصها للعالم تخلص أيضا لنفسها وهى ترى من الاخلاص لنفسها أن تنشد الله بما فيها من قلب وعقل وتتحسس وجوده فى هذا الكون بما تهديها اليه بصائر نفوسها

ولعل أظهر واحد من هذه الطائفة وأكثرهم جهاداً هو المستر ولز الانجليزى فلست أعرف رجلا آخر قد تلظى بنار الحيرة ثم اهتدى إلى ربه وسكن اليه ، مضى عليه أكثر من عشرين سنة وهو يحاول أن يستخلص من لباب نفسه إيمانا يقفه من الكون على علاقة ترضى ضميره وعقله ولست أظن أن كثيرين من الذين يقرأون المجلدات الأربعة التى وضعها فى هذا الموضوع يهتدون بهديه أو يقنعون بدينه ولكنى أعتقد أن هذا الرجل يبدى من الشرف والشجاعة والاخلاص ماهو جدير بكل إنسان يحترم نفسه ويحب أن يرى الأديان تنبع من القلوب خالصة نقية ولا نصب فيها مشوبة بما أوقرها التاريخ القديم من العقائد المختلفة .

ولسنا نقول أن ولز ينفرد بهذه النزعة فإن هناك كما قلنا طائفة كبيرة وهى وإن كان أفرادها دونه ظهوراً إلا أنهم ليسوا دونه فى الاخلاص والذكاء . وهم جميعهم يكرهون أن يؤمنوا إيمان العجائز بل يحاولون أن يحققوا للانسان استقلاله الروحى . ولكن كما أن حديث العهد بالإستقلال فى السياسة يتخبط فى مبدأ استقلاله فكذلك حديث العهد باستقلال الروح لابد له من فترة تقضى فى التردد والتخبط والظلام ثم ينجلى كل هذا عن نظام ونور ويقين .

وهذه الطائفة تحاول أن تؤمن وكثيراً ما تؤمن وإن كانت فى نظر أكثر الناس معدودة من « الكفار » وهى كافرة بالفعل بتلك العقائد التى ورثها العالم عن قدماء المصريين والآشوريين والفرس ولكن إخلاصها لنفسها وللعالم يدعوها إلى النظر فى الكون نظراً صريحاً وإلى محاولة حل هذا اللغز حلا تسكن اليه .

فنحن إذا نشدنا الاستقلال الروحى فإنما ننشده للغريزة الدينية التى فى نفوسنا . وليس فى ذلك تنطع أو استهزاء بالآراء . وإنما هى الإنسانية قد بلغت سن الرشد وتأبى أن يقام عليها وصى من الخارج لأنها تحس أن هذا الوصى قائم فى داخل نفوسنا وهى ترى من المرجولة أن تتحسس وجوده وتحاول الاهتداء اليه .

لا جديد تحت الشمس

نكتب هذا العنوان لكى ننفيه ونقول أن كل شىء جديد تحت الشمس . وأولئك الذين يدعون دعوى الدوام وأن الجديد كالقديم إنما يقولون ذلك ونفوسهم تردد صدى القول القائل بأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان وإن العالم لا يتطور . ولكن الواقع أن العالم يطور ويتجدد، وهو اليوم غير ما كان فى الأمس وسيكون فى الغد غير ما هو اليوم . وهذا التغير لا يلحق النبات والحيوان وحدهما بل يلحق الجماد نفسه . فإن تاريخ الأرض يثبت تحولها . فقد مضى زمن كانت فيه أميركا جزءاً لاحقاً متصلا بأفريقيا وأوربا . ومضى زمن كانت فيه أوربا مغمورة معظم أقطارها بالثلج وكانت مصر فى وقت مالا ينقطع عنها المطر صيفاً وشتاء . ومضى زمن كان فيه جبل المقطم قعراً للبحر تسبح فوقه الأسماك وينساب عليه المحار . ويقول العلماء الآن أن المادة دائمة التحول لا تهدأ ذراتها عن الحركة . فالجماد نفسه يتجدد تحت الشمس تنطق بذلك طبقات الأرض الجيولوجية كما ينطق أيضا فحص المادة فى المختبرات العلمية

والنبات أيضا يتحول ويتجدد . فمعظم النبات الذى وقعت عليه عين الشمس قبل عشرة ملايين سنة ليس له وجود على أرضنا الآن لأن نباتاتنا جديدة . وبرهان ذلك أنه عند ما وجد الفيل المنقرض

الذى يسمى الماموث فى سيبيريا واستخرج من تحت الثلج فحصت الأعشاب التى فى معدته فلم يعرف منها واحد يعيش الآن . ثم هذا الفحم الحجرى الذى يستخرج من المناجم كان قبلا نباتا لا وجود له الآن . ونحن هنا لنا فى مصر وزارة زراعة من مهماتها أن « تجدد » سلالات القطن أى توجد أصنافا لم تكن موجودة قبلا تحت الشمس .

أما تجدد الحيوان فمختصر ما يقال فيه أن نظرية التطور قائمة عليه وهى تستمد شواهدها من الحيوانات التى انقرضت والحيوانات التى جدت . وليس فى العالم متحف للتاريخ الطبيعى إلا وفيه عشرات من الحيوان المنقرض .

فالتحول هو الناموس الأصلى للكون كله فليس فيه شىء باق أو دائم وإنما كل شىء يتحول تحت الشمس ويتجدد من لحظة لأخرى . حتى أنت أيها القارىء منذ ابتدائك لقراءة هذا المقال إلى أن تنتهى منه ستتحول وتتطور لأنك على الأقل ستكون أكبر سنا بجملة دقائق . وإذا اختلف اثنان فى السن اختلفت آراؤهما وقوتهما ومزاجهما وإن تكن ذلك بقدر يسير لا يلحظ بالحواس ولكنه يستنتج بالعقل . فكل شىء إذن جديد تحت الشمس وكل شىء يتطور حتى الجماد . أجل حتى جبل المقطم والصحراء والنيل . ولكن هذه الأشياء تختلف فى سرعة تطورها . فالحيوان يسبق النبات والنبات يسبق الجماد والانسان يسبقها كلها ، ثم بعد ذلك نقول إن الأمم الغربية تسبق الأمم الشرقية فى التطور . فأنت

تسمع مثلا عن تعدد الأزياء وتجددها كل يوم فى باريس ولندن وغيرهما وتقرأ ما يقال من الفكاهات عن ذلك وتحسب هذا التقلب السريع فى الأزياء ضربا من نزق النساء . وقد يكون كذلك ولكنه أيضاً دليل على أن شهوة التطور أشد هناك مما عند الشرقيين . وهذه الشهوة نفسها هى التى تثمر المخترعات والمكتشفات كل يوم . والشرق بجموده لا يخترع ولا يكتشف والغرب بتطوره يسير قدماً نحو الأمام ويجر الشرق الجامد وراءه بعد أن يمتهنه ويستخدمه . فالواجب الذى يحتمه علينا ناموس الطبيعة الأكبر هو أن نتجدد ونتطور ولا نجمد . يجب أن نجدد أذهاننا بالعلوم والنظريات الجديدة كما يجب أن نجدد نفوسنا بما نطبعه عليها من أذواق جديدة نكتسبها بدرس الفنون الجديدة . ويجب أن ننظر إلى المستقبل ونفكر فى الرقى المطرد والتطور المستمر ولا نقنع بالنظر إلى السلف والجدود فإن النمط الذى ساروا عليه فى حياتهم قد بلى وانقرض ونحن فى حاجة إلى أنماط جديدة تلائم وجهة النظر الحديث . فهلم أيها القارىء نتجدد فى الثقافة والحضارة جميعا وننصت إلى صوت ضميرنا الذى يدفعنا إلى الأمام ويحثنا على الاستقلال وننفض عن أنفسنا غبار التقاليد التى تقيدنا وتؤذينا وتسد علينا منافس الحياة وتقتلنا .

هذه الدنيا

منذ سنوات مات شاب انجليزى وهو دون الخامسة والثلاثين وكان قبل موته بنحو خمس سنوات يعرف أنه قد حكم عليه أن يشرب كأس الموت المرة حوالى هذه السن . فقدكان مريضا مقضيا عليه بالموت فكان يروح ويغدو وهو عارف بأن الساعة الرهيبة تقترب . وقد خلف هذا الشاب كتابين أو ثلاثه ضمنها إحساسه بالوجود ورأيه فيه وتنكر أمام قرائه باسم باربيون .

والقارىء لهذه الكتب يشعر لأول صدمة أن الرجل شقى بل فى غاية الشقاء فإن عقله كان أحيانا يهذى بالموت فكان يخرج إلى الحقول يتنزه فيخطر برأسه خاطر الموت كالسكين القاطعة يلتوى تحته فيكاد يصرخ ويكاد يعدو ناجيا بنفسه ولكن لانجاة من عدو غير منظور . ثم كان يكشف عن جسمه فيرى بشرته الحمراء والدم يجرى دافئا فى العروق فتسود الدنيا فى وجهه عندما يذكر أن هذا الدم القانى سيستحيل قريبا سائلا أصفر منتنا يختلط بتراب القبر وتسبح فيه ديدانه .

أقول أنه يخيل للقارىء أن هذا الشاب كان شقيا لهذه الخواطر ولكنى بعد التأمل أقول أن هذا الخبيث كان فى غاية السعادة . فإنه

عند ما عرف آخرته وتعين له على وجه التقريب زمنها طفق ينظر إلى العالم كأنه مكان غريب يوشك أن يخرج منه فيجب عليه لذلك أن يرى كل ما يمكن أن يراه فيه ويتمتع بجميع ما فيه من متع ومسرات . فعاش ملء حياته فى تجارب وملذات وخرج من الدنيا وقد شبع منها بأكثر منها ابن الثمانين أو التسعين . أو قل أنه عاش بسرعة عيشة الغزال بينما غيره يعيش بطء السلحفاة ويوم واحد من حياة الغزال خير من ألف عام من حياة السلحفاة .

ويخطر ببالى أننا نكون أسعد حالا لو اننا عرفنا يوم انقضاء أجلنا كما عرفه باربيون لأننا عندئذ نفعل فعله فنكف عن كل مالا فائدة فيه ونعمد إلى رؤية هذا العالم والتمتع بمشاهده وتجاربه ولا يحسبن القارىء اننا نغمس عندئذ فى الملذات البهيمية لأن الانسان بهيم بطبيعته وإذا كان البهيم من الأشخاص المضمرة فى نفسه فإن الفيلسوف شخص آخر مضمر فى نفسه .

ودليلنا على ذلك أن باربيون لم ينقلب بهيما يشره إلى الطعام أو النساء أو الخمر بل انقلب فيلسوفا يخرج فى الفجر لكى ينظر إلى بزوغ الشمس وتوهج الشرق بأضوائها الملتهبة . وأخذ يعد الأيام بينه وبين الموت فصار يدرس كل شىء تقع عليه عينه فى هذه الدنيا فكان يقرأ القصص الروسيه ويشرح البراغيث . وكان يقرأ نيتشه حتى يشعر انه كاب عضوض ثم يعرج بعد ذلك على الموسيقى الألمانية

فيستكنه سحر الأنغام وطرب الايقاع. وكان يصعد مع ما هو فيه من أمراض عاتية مضنية إلى قمم الجبال وكأنه يريد أن يواجه الكون لوجهها لوجه ثم يعود فيكتب مقالا عن «الرغبة في الخلود» تتوهج ألفاظه بالتفاؤل والمجازفة والرغبة العنيفة في التجارب والتمتع بالدنيا .

إقرأ مثلا هذه القطعة منه : «يقول تين أننا في الآداب يجب أن نحب كل شيء . وأنا أقول : أجل . وفي الحياة أيضاً يجب أن نحب كل شيء . إن جميع الأشياء في هذه الدنيا تجذبني فلا أستطيع أن أحصر قواي بل أراني مستعداً لأن أعمل كل شيء وأذهب إلى كل مكان وأفكر في كل شيء وأقرأ أي شيء... . وإنما يقطع الانسان نفسه من بعض الوجوه إذا هو اقتصر على صناعة بعينها أو طريقة للحياة أو مذهب أو فلسفة أو رأي أو تعلق . فاني أنا أكتب للجميع ...» .

ولكن يجب أن أمنع نفسي هنا عن فتنة النقل المغرية واقنع بالعظة والعبرة : فان حياة باربيون على قصرها املأ بالتجارب والمتع من حياة أي واحد منا . فاننا نعيش أكثر أيامنا عيشة نباتية كأننا أشجار مزروعة لا ننتقل إلا فيما بين بيتنا ومحل عملنا ولا ندرس

من المعارف إلا ما نحصل به عيشنا فنموت ونحن نجهل عجائب هذا العالم . وليس فى هذا العالم شىء تافه إذا سلط عليه الذهن بالدرس وليس فيه حجر أو حيوان أو نبات الا وهو صندوق عجائب لا ينتهى الانسان من لذة المعرفة له . ثم هذه الدنيا بمتاحفها الطبيعية بجبالها وأنهارها وحقولها وبما فيهامن تحف وطرائف صنعها الانسان كلها جديرة بالدرس الذى هو أرقى أنواع التمتع .

الحياة الطفيلية

منذ أيام كنت أقرأ كتابا عن الاغريق القدماء وأثرهم فى ثقافة العالم . والاغريق هم ، كما يعرف القارىء ، أصل الأدب الحديث وواضعوه من مبادئه . ولكنهم مع تقدمهم فى الأدب ليس لهم أى فضل فى العلوم . وخاصة تلك العلوم العملية التجريبية التى تعزى اليها حضارتنا الحديثة . وليس ينكر انه قد نبغ فيهم اقليدس ولكنه كان صاحب نظريات . وكذلك ليس ينكر أن ارسطوطاليس شرع طريقة عملية للعلوم وأن ارخميدس اخترع الطنبور الذى يستعمل الآن للرى فى حقولنا . ولكن المهم الذى يلفت النظر أن الأغريق لم يستأنفوا السير على الطريق الذى اختطه لهم ارسطوطاليس وأن أرخميدس كان يخجل من تدوين مخترعاته لأنه كان يعتدها من التفاهة والهوان بحيث لا تستحق العناية بتدوينها . فماتت تلك الحركة العلمية الصغيرة بل وئدت فى مهدها . ونام العالم فى الظلام نحو ١٥٠٠ سنة إلى أن نهض نهضة علمية جديدة ثابتة الأساس مطردة التقدم . فماذا كانت علة ذلك ؟ .

كانت علة ذلك أن الاغريق كانوا يعيشون عيشة حلمية أى كالحلم الذى يمتص دم الحيوان الذى يعلق بجلده . فكانوا يستخدمون

العبيد ويمتهنونهم فى أعمالهم المنزلية والزراعية والصناعية وكانوا لذلك يحتقرون جميع الأعمال التى يعملها العبيد ولا يرضون البتة بأن يدرسوا الصناعة أو أعمال البيت أو شئون الفلاحة . وبديهى أن العلوم لا تنشأ إلا إذا كانت تتناول هذه الأشياء بالاختراع وهذا يتضح إذا القينا نظرة واحدة على المخترعات التى تخترع فى زماننا فإنها كلها تتناول الزراعة أو الصناعة .

فالاغريق حرموا أنفسهم العلم لأنهم كانوا يعيشون فى دعة عيالا على عبيدهم يجنون ثمرات جهدهم ويحتقرون مع ذلك أعمالهم ويتميرون من التلبس بها أو الاهتمام بشئونها . وقوام العلم الاختراع. ومادام الانسان لايحترم عملا ما فهو لايفكر فيه ولا يتهم لتخفيف مشاقه باختراع آلة أو اكتشاف طريقة بها تقل ساعات العمل أو تزيد مكافآته .

وعلى ذلك يمكنك أن تقول أن الرق لم يكن مؤذيا للعبيد وحدهم بل كان أيضاً أذى عظيما وبلاء كبيراً للاغريق أنفسهم لأنه حرمهم تسليط عقولهم على حضارتهم والعمل لتقدمها بالاختراع والاكتشاف العلميين .

وما أحرانا نحن أن نعتبر بهذه العبرة البالغة . فالوارث الذى يتمتع بأموال أبويه وهو وادع هانىء لا يعمل ولا يكد انما يعطل قواه ويعوق كفاياته عن النمو فيركد ذهنه ويعيش فى العالم عيشة

حالمة وهو قانع بما يقنع به الحالم من طعام وشراب لأن العقل لا ينمو ولا يزكو إلا إذا اعتملته التجارب ونقحته الاختبارات وهذا لا يكون بالركود والدعه وانما يكون بالجهد والعمل والتفكير والتهمم للرقى والنجاح .

ويخطر ببالى وأنا أسطر هذه الكلمات ذلك الخبر الذى ذكرته الصحف من أن جامعة ريدنج فى انجلترا قد أنشأت شهادة عليا للبانة أى صناعة الجبن وما اليه من مستخرجات اللبن . فان الانجليز لا يحتقرون الصناعات ولذلك يسلطون عليها عقولهم بالدرس والاختراع فترقى الصناعة بهم ويرقون هم بها . ولو أن أفندياً من شبابنا اقترح عليه أن يصنع الجبن لأنف واستكبر . وهو إنما يفعل ذلك لمثل السبب الذى كان يحدو الاغريق إلى احتقار الصناعة . فقد احتقرنا نحن الفلاح واضطررناه إلى عيشة زرية فى أكواخ بالية ووضعنا كرامته فى أعيننا فصار فى مركز العبد وصرنا لذلك نحتقر أعماله وكل ما يلابسه فعاد فينا احتقارنا كالسهم الاسترالى يطلقه صاحبه فيرتد اليه . وبتنا وإذا بشبابنا يترامى على وظائف الحكومة ولا يستطيع أن يقف على قدميه مستقلا ويواجه عالم التجارة والصناعة والزراعة بكفايته ومهارته .

أجل أننا نعيش الآن كالحلم على الفلاح . وجميع أنواع الحلم سواء فى أنها تفقد جزءاً كبيراً من كفاياتها . فالديدان التى تعيش

فى بطوننا تفقد أحياناً قناتها الهضمية لوفرة الغذاء حول جلدها . وبين النمل أفراد تعيش بخدمة غيرها لها فتعجز عن الحركة وتبقى مدى حياتها فى مكانها لا تريم لأنها تجد من النمل ما يعنى بها ويغذوها ويمسحها .

إننا لا نخترع ولا نكتشف لأننا لا نتلبس بالحياة العملية حياة الصناعة . والعلم لا يتقدم إلا إذا كانت غايته عملية . وقد بدأ بيكون النهضة العلمية الحديثة بحض الناس على درس « الأشياء العادية » ولكن هذه الأشياء العادية البسيطة أصبحت فى يد عمال لا نحترمهم وإن كنا نعيش بعرق جبينهم فنحن لذلك نتعير من أن نكون دباغين أو حدادين أو خبازين مع أنه لا مجال للاختراع والاكتشاف إلا فى مثل هذه الصناعات . وأيضاً لا مجال للعمل الاستقلالى إلا فى ميدانها .

العلم والأدب

ليس شك فى أن عصرنا الحاضر هو عصر العلوم وأن العصور القديمة هى عصور الآداب . وليس ذلك إلا اطراداً مع رقى الذهن البشرى لأن العقل العلمى أرقى من العقل الأدبى

وذلك لأن عقل الآداب هو عقل الخواطر السائبة الطارئة ، وإن كان قد صبغ فى عصرنا بقليل من الصبغة العلمية . بينما نجد أن العقل العلمى يتقيد ولا ينساب ويجيل الفكرة عن عمد لا تطرأ عليه طروء الخواطر الهاملة.

ولكن هناك سبباً آخر (غير الرقى الذهنى) لا تسام العصور الحديثة بسمة العلوم . وهذا السبب ينحصر فى أن الأمم القديمة كانت ارستقراطية ينتظم فيها نظام الأرقاء والموالى يسودهم ويستغلهم الأسياد والأشراف . بينما زماننا الحاضر زمن ديمقراطى خلو من الرق والولاية. فكان العبيد والموالى قديما يقومون بالأعمال اليدوية بالزراعة والصناعة بل حتى بالتجارة لمصالح أسيادهم . وكانت هذه الصناعات كلها محتقرة لأنها قد اختص بها العبيد دون الأسياد . والعلوم إنما تنمو وتزكو بين الصناعة ولكن لما كانت العقول المسلطة عليها قديما هى عقول العبيد فقط ، ولما كان هؤلاء العبيد أيضا خلواً من التربية والمال

فانهم لذلك لم يخترعوا ولم يكتشفوا ولم ترتق بهم الصناعة أو العلم . وكذلك رأى الأسياد والأشراف أنه لا يليق بهم أن يتلبسوا بالصناعة للعار الذى يلحق بها إذ قد اختص بها عبيدهم ومواليهم . ومن هنا نفهم نهى الغزالى للناس عن أن يكونوا حلاقين أو دباغين .

فالعصور القديمة كانت عصور الآداب لأن الخاصة المتعلمة كانت تأنف من ملابسة العبيد فى صناعاتهم وتقتصر على درس الآداب . ولكن لما قاطعت الخاصة الصناعات قاطعت العلم أيضا إذ أن ميدانه هو ميدان الصناعة لأن رقى العلوم لا يمكن أن يكون شيئاً آخر سوى رقى الصناعة ، إلا إذا استثنينا الفلك .

وقد سارت نهضة العلوم الحديثة سيراً مرافقاً لإلغاء الرق وتحرير الصناعة بل تطهيرها مما علق بها من عار الرق السابق، وشرع بيكون عندئذ يناشد الكتاب والمؤلفين أن يدرسوا « الأشياء العادية » ويتركوا المسائل الضخمة من البحث فى ماهية الخالق وما وراء الكون ونحو ذلك . وهذه الأشياء التى درسها بيكون هى أساس الرقى الصناعى أو الرقى العلمى الحاضر .

والعبرة لنا مما قدمناه شيئاً :

١ — أن نهضتنا فى مصر أدبية وليست علمية ، وهى تخالف فى ذلك أوربا .

٢ — أن علة ذلك أن الفلاح والعامل عندنا محتقران .

فاننا قد وضعنا العامل الصناعى والعامل الزراعى فى مركز العبد من حيث قلة الأجر وهوان العيش بحيث صرنا نتغير من أن نعمل عملهما . والعلوم لا تتقدم إلا بدرس الأشياء العادية أى بدرس خمائر الجبن أو الخبز أو الكؤول أو بدرس أرواث البهائم أو زيوت الوقود أو الأصباغ أو نحو ذلك . وهذه أشياء يتلبس بها العامل الذى نحتقره فلذلك نحن نحتقرها ولا نحب أن نمسها . وعاد علينا هذا الاحتقار كالسيف القاطع حتى قطعنا من البحث العلمى وانصرف شبابنا إلى الأدب وصاروا الآن يعنون بقراءة قصيدة أكثر من عنايتهم بوصف طائرة مع أن صناعة الطائرات أشرف من قرض الشعر وهى برهان على رقى الذهن العلمى وتفوقه على الذهن الأدبى ، فإن الهمج يقرضون الشعر ولجميع الأمم فى جاهلياتها القديمة أشعار وقصائد بارعة ولكن العلم هو ثمرة الذهن الحديث الذى غذى بأوفر مادة من الثقافة والحضارة .

ثم إن احتقارنا للصناعات قد سد علينا طريق الأعمال الحرة التى هى أساس القوة والثروة عند الأمم الراقية . فيجب علينا إذن أن نعمد إلى نهضتنا الحاضرة فنصبغها صبغة علمية وإلى عمالنا فنرفعهم إلى مستوى يحفظ كرامتهم الانسانية وكرامة الصناعات التى يزاولونها ثم بعد ذلك لا نحتاج إلى أن نحث الشباب على طرق أبواب الأعمال الحرة .

ويجب أن نغرس فى أذهاننا أن وطن العلوم هو المصانع وأن

الأمة المصرية تنتفع وترتفع إلى أعلى درجات المجد إذا أقبل شبابها على الصناعة . وأن العلوم ترتقى لأنها تجد البيئة الموافقة لهـا فى الصناعة التى تغرى العالم بالعلم للمكافآت العظيمة التى تقدمها له . ونحن ما زلنا فى طور الزراعة من حيث العمل وطور الأدب من حيث التفكير . وكلا الطورين لا يتفقان والعصر الحاضر . فالزراعة التى نمارسها قد باتت من احتكار الهمج فى أفريقيا وآسيا وأمريكا . والهمج لقلة أجورهم سيطردوننا من أسواق العالم . وقد عرف القارىء مما ذكرناه آنفاً أن الأمم جميعها كانت فى جاهليتها أى فى همجيتها تعرف الأدب . ولكنها لم تعرف العلم أو الصناعة اللذين هما التوأمان لرقى العصر الحاضر .

أنفس الأثاث

منذ مدة نشر أستاذ انجليزى كتابا عن مقياس الكفاية فى العائلات فقال إن أفضل ما تقاس به العائلة هو مقدار الأثاث فى منزلها ونوعه . فإن الانسان إذا وقف أمام صورة معلقة على الحائط استطاع أن يحكم على صاحبها ويعرف منها درجة ذوقه وثقافته . فهناك من يعلقون صورة بطلة من بطلات السينما توغراف وهناك أيضا من يعلقون صورة لفينوس ربة الجمال عند الإغريق وفرق عظيم بين هاتين العائلتين . ثم هناك أيضا عائلات لا تعلق على جدران منازلها أية صورة كأن الفنون التى مضى على الانسان نحو عشرة آلاف سنة وهو يحاول أن ينقل إليها هواجس نفسه وعواطفه وعقله لم تخلق لها أو كأن هذه العائلات تعيش فى بداوة خاصة بها مقصورة عليها فى وسط الحضارة العظيمة التى نعيش الآن بين ظهرانيها ونتقلب فى نعمتها . وقد يكون هذا الأستاذ مصيباً أو مخطئاً ولكن الواقع أننا نحكم على درجة الناس ومركزهم الاجتماعى بأثاث بيوتهم . فلا نبالى بالرجل كم يملك من الأرض أو العقارات إذا لم نجد بيته مؤثثاً منجدا على الطراز الذى ندرك منه حضارة أهل البيت وثقافتهم . ولكن أثاث المنزل يتفاوت . وأنفسه وأدعاه إلى تقدير أصحابه هو المكتبة .

فالمكتبة هي أفخر ما في البيت من أثاث . فإن المقعد الجميل والمنضدة الملبسة بالصدف والصورة الفخمة والسجاد الفاخر الذي حاكته الأيدي الفارسية والستائر السرية والثريات المتلألئة كلها تدل على الذوق العالي والتبصر الحكيم لأصحاب المنزل ولكن أفخرها كلها وآنسها للضيف أو لرب البيت هو المكتبة . فإن المكتبة أثاث حي يؤنسك ويستجيب لك ويلبي شهواتك العليا فأنت تنظر إلى قطعة الأثاث الجميلة فتغذو عينك بجمالها ويلذ لك رؤيتها ولكن الكتاب ليس جميلا فقط بل هو يتسرب إلى ذهنك فيجعل ما تملكه من هذا الكون ملكوتا عظيما ويبسط نفوذك إلى أوسع مدى يستطيعه هذا الذهن ويكبر شخصيتك حتى تملأ هذا الفضاء كله وحتى ليس به مكان يخرج عن استعمارك واحتلالك . فأنت بكتب التاريخ مثلا لا تقصر عمرك على سبعين أو ثمانين عاما تعيشها على هذه الأرض بل تذهب بخيالك إلى ملايين السنين الماضية وآلاف السنين القادمة فتشعر عندئذ بكبرياء وعظمة أنت جدير بهما لأنك تاج التطور ولأن جميع الأحياء على هذه الأرض دونك في هذه الذاكرة التي جعلها الكتاب تمتد بنا إلى ملايين السنين الماضية . ثم انظر في كتب السياحة أو العلوم أو الآداب أو الأديان تجد نفسك تشرئب وتتطلع إلى حقائق هذا الكون وذهنك يلتمع بالخواطر والأفكار التي تهبط على هذه الحقائق وتمسها أو تكاد . فترى عندئذ أنك تستعمل

ذهنك فى أشرف ما يمكن انساناً أن يستعمل فيه ذهنه وهو التسلط على هذا العالم بكشف حقائقه .

والمكاتب والكتب إنما هى محاريب الثقافة الإنسانية . وليس شك الآن فى أيامنا هذه وخاصة عند الأمم الأوربية فى أن الجامعة الحقيقية التى يمكن جميع الناس أن يتخرجوا منها علماء راسخين إنما هى الكتب كما قال كارليل .

وقد أصبح لهذا السبب من أكبر ضروب البر والعناية بالخدمة العامة أن يتصدق الأغنياء بالكتب والمكاتب المجانية .

ولكن هذه المكاتب العامة لاتغنى عن المكاتب الخاصة . ففى كل بيت يجب أن تخصص أجمل غرفة لكى تكون محراباً للسكان يغشونها فى أوقات فتورهم ونشاطهم ويجدون فيها من الكتب الفاخرة لهوا وفائدة وأغراء يحول دون غوايات هذا العصر . فأن المغرم بالكتب يراها هوايته يقتنيها للقراءة أو للاستشارة وينفق على تجليدها وتزيينها ما ينفقه غيره فى البطالة المفسدة على القهوات أو فى الإكباب على الشراب أو نحو ذلك من الغوايات الكبرى .

ومما يذكر عن المستر رمزى مكدونالد رئيس الوزارة الانجليزية السابقة أنه وهو ينتقل من منزله إلى منزل آخـــر وضع الحمالون أكداس الكتب التى يتألف منها جزء من مكتبته فى وسط إحدى

الغرف فتحطم السقف تحتها لوفرتها وثقلها . وهذا خبر يروى عنه كأنه إحدى مفاخره .

وحبذا المفخرة يفخر بها الشاب أمام إخوانه إذا دعوه إلى القهوة فاعتذر بلزومه منزله لأن مكتبته أنخر أثاثاً من القهوة وآنس منها للنفس وأوفر لهواً وفائدة . وحبذا المفخرة أيضا لربة البيت تفخر بها أمام ضيوفها وتبرهن لهم على ثقافة السكان وعلو منزلتهم. ونحن أبناء القرن العشرين قد تحضرنا وتثقفنا وارتقينا على آبائنا وجدودنا فلم نعد نقنع من المنزل بسجاده وكراسيه وموائده فإن لنا كبرياء تدفعنا إلى أن نحترم أكرم ما فى أجسامنا وهو الذهن بأن نغذوه بأجمل الكتب فى أنخر المكاتب .

الروح الانجليزية تتطور

اجتمع منذ أسبوعين مؤتمر مؤلف من كهنة الكنيسة وقرر فيما قرر تنقيح كتاب الصلاة الانجليزى . فأنقص منه وزاد ونقح فيه بالتبديل والتعديل . فمن ذلك مثلا أنه استبدل الحب بالطاعة التى كان يفرضها الكتاب السابق على الزوجة لزوجها . ومنذ أكثر من ١٥ سنة التأم مؤتمر آخر مؤلف من كهنة الكنيسة الانجليزية أيضاً وقرر قبول نظرية داروين .

ولسنا بسبيل الفحص لهذه التنقيحات فإننا لسنا أهلا لها . وإنما لنا العبرة لأننا نعيش فى هذا الشرق الذى يكره التبديل والتنقيح ويطلب منا أن نعيش كما كان يعيش آباؤنا منذ ألف عام وأن نتكلم لغتهم بلا تبديل أو تعديل . وأن نعتقد عقائدهم :

فهؤلاء الانجليز الذين يملكون نحو ربع الدنيا والذين هم بلا نزاع من أرقى الدول يكرهون الجمود حتى فى دينهم . فالصلاة تتطور معهم لأن روحهم تأبى الجمود كما يأباها ذهنهم . فاللغة الانجليزية التى يكتبها المؤلفون الانجليز الآن تختلف اختلافا عظيما عن اللغة التى يكتبها شكسبير قبل ٣٠٠ سنة . ونزعة الآداب الانجليزية الآن تختلف عما كانت فى أيام ولتر سكوت قبل مائة سنة . والانجليزى

فى معيشته الآن يختلف عما كان قبل مائة سنة . وأقل ما فى هذا الاختلاف أنه يعيش الآن بالصناعة وكان قبلا يعيش بالزراعة .

فالانجليزى قد تطور فى لغته وآدابه ومعيشته وها هو ذا يريد الآن أن يتطور فى صلاته وفى علاقته بربه . وهذا يدل على أنه يفهم الحياة أكثر منا وإنه يفطن لأهم نواميس الحياة وهو التحول والتطور .

وما أحرانا نحن بأن نفقه هذه العبرة فهؤلاء الإنجليز متقدمون راقون يسودون العالم ويغلبون كل من يعارضهم فى تنازع البقاء لأنهم لا يجمدون ولا يلزمون حالة واحدة .

ولسنا نظن أنه يمكن أحد الشرقيين أن يقترح تنقيح صلاته كما يفعل الآن الانجليز وهو لو فعل لعد كافراً وبات بذلك طريد أهله وملته . ولكن هذا لا يمنعنا من أن ننشد التطور فى النواحى الأخرى لحياتنا الاجتماعية والاقتصادية . فنحن الآن مثلا على أبواب نهضة كبيرة تتقلب فيها معايش الناس من الزراعة إلى الصناعة ومن الأدب إلى العلم كما انقلبت فى تاريخ الإنسان الماضى قبل سبعة آلاف سنة من البداوة إلى الحضارة . فإذا لم نتمش مع هذه النهضة وإذا لم يقبل شبابنا على الصناعة ويضع من الآن أسسها الوضيعة سبقنا العالم فلا نستطيع عندئذ اللحاق به . ثم هذه الزراعة التى نمارسها الآن فى حقولنا قد عرفها الهمج فى العالم وصار الغربيون

يمارسونها فى الأراضى البكر على مساحات واسعة يزرع الواحد منهم نحو خمسين أوستين فدانا . ولا قبل لنا نحن بأن نزاحم هؤلاء بزراعتنا، وعلى ذلك يجب أن نعرف أن زراعتنا مقضى عليها إذا لم نجعلها فنية قائمة على الفواكه والخضراوات وصناعية قائمة على الغزل والنسيج والتجبين .

فزراعتنا يجب أن تتطور حتى تكون صناعية . ثم هذا الأدب الذى يمارسه شبابنا هو أدب بال قائم على الألفاظ والزخارف فيجب أن يتطور حتى يصير أدبا علمياً غايته البحث عن معايير جديدة للحياة والسعادة .

ثم معيشتنا يجب أن نتناولها بالتنقيح والتبديل حتى ترافق بيوتنا شروط الصحة والجمال، وحتى لانحتاج إلى أن نهجرها إلى القهوات والحانات ، لكى ننسى حياتنا فيها بعض النسيان . وأيضاً يجب أن نتذكر المرأة التى هى الأم والمربية والعشيرة فنرفعها إلى مستوى المرأة الأوربية حتى تكون بذلك إنسانا نأنس به فى بيوتنا . وحتى تكون حكيمة مدبرة يمكنها تربية أولادها والاشراف على مصالحهم إذا مات زوجها .

وإذا كان الانجليز لا يتهيبون من التنقيح فى الصلاة التى يتقدم بها الانسان لربه فاننا يجب ألا نتهيب من التنقيح والتبديل فى معايشنا فنعمل لتحرير المرأة وتعليمها الحرف التى يمكنها أن تعيش منها .

ونعمل لحث الشباب على درس العلوم وممارسة الصناعات ، ونعمل أيضا لحث جميع الناس على اصطناع المخترعات الجديدة فنركب الطائرات بدل الحمير، التي كان يركبها أسلافنا قبل عشرة آلاف سنة ونخترع ونكتشف ونتقدم للعالم بحصتنا من المجهود فى ترقيته . لأننا نعيش الآن ونحن عيال عليه ، فى الاختراع والاكتشاف . وليس ذلك إلا لأننا نلزم السنن القديمة والطرق العتيقة .

تنقيح الصلات الانجليزية

ليس شيء أكرم عند المؤمن من صلاته ، ولا شيء يدعوه إلى الوقار أكثر من وقفة المتعبد الخاشع أمام ربه . فإذا كان فى العالم شيء جدير بالمحافظة والجمود فهو ألفاظ الصلاة وعبارات الدين . لأن لهذه الألفاظ والعبارات من الحرمة والقداسة مايجعل المؤمن يحرص على أن تبقى كما هى محتفظة برسمها العتيق كما تحدر من مئات السنين الماضية . ولذلك نرانا مضطرين إلى أن نعود إلى الموضوع وهو هذه الصلاة الإنجليزية التى عمد إليها الأساقفة فنقحوها وغيروا وبدلوا فى ألفاظها وعباراتها حتى تتفق وروح العصر الحاضر . وذلك لأن لهذا التنقيح مغزى جديراً بالتفهم والدرس وخاصة عندنا نحن المصريين .

فنحن أمة قديمة ابتدعنا الحضارة لأول ما ابتدعت فى تاريخ هذه الكرة الأرضية، فكنا المعلمين وسائر الأمم التلاميذ. ولكننا جمدنا وخشينا البدع ولزمنا سنن الآباء ، ولم نتطور فسبق التلاميذ معلميهم وبتنا وقد تخلفنا وتقدم غيرنا . وأقرب برهان على جمودنا أننا فى العام الماضى أحدثنا زوبعة هائلة فى فنجان بشأن طائفة من الشباب أرادوا أن يستبدلوا القبعة بالطربوش ، ثم عدنا فملأنا العالم صياحا بشأن طلبة دار العلوم حين أرادوا اتخاذ اللباس الغربى ،

وفى هذا الشهر أذاع وزير المعارف منشوراً يحتم فيه لبس العمامة والقفطان على معلمى المدارس الأولية . فتأمل معى أيها القارىء وقابل مصر بانجلترا . فهناك يتجرأون على تبديل الصلاة ، وهنا لا نجرؤ نحن على تبديل اللباس ، وحين يتسوف شبابنا إلى التمثل بالغربيين ويطمحون إلى المساواة بهم نكبت فيهم هذا التشوف وهذا الطموح ونضطرهم إلى لزوم اللباس الذى كان يلبسه أجدادنا وأجداد أجدادنا .

هناك فى انجلترا يقول برناردشو إن الأمة الحية يجب أن تنقح دياناتها مرة على الأقل كل عام ، ويعمد الأساقفة إلى كتاب الصلاة المقدس الذى تضعه العجوز الهرمة تحت وسادتها فى الليل وتقرأه فى الصباح فينقحونه ويبدلون فى معانيه وألفاظه ونحن نصيح ونولول إذا غيرنا اللباس . وليس هذا فقط . بل فى العام الماضى أطلق فى مصر على اليهود والنصارى صفة الكفار ، وكانت الحجة فى إطلاق هذه الصفة أنها قديمة يعرف بها النصارى واليهود من أكثر من ألف عام .

فلهؤلاء الذين يبالغون فى احترام القديم نقول : انظروا إلى الأساقفة الإنجليز واحفظوا عنهم دروسا فى المدنية . فإن هؤلاء الأساقفة وجدوا أن صلاة التعميد تذكر غضب الله وانتقامه فمحوا ذلك واستبدلوا بهما ذكر الحب والرحمة ووضعوا البركات فى مكان اللعنات . ووجدوا أن صلاة العرس تقتضى الطاعة من الزوجة

لزوجها فمحوها ووضعوا فى مكانها الحب والتعاون .

ومنذ نحو ٣٠ سنة حين اعتلى ادوارد السابع عرش أجداده ورأى فى صلاة التتويج الانجليزية ما يجرح عواطف البابا والطوائف الكاثوليكية عمد إلى الأساقفة فطلب منهم تنقيح هذه الصلاة حتى توافق روح العصر وتعمل للوئام وتضع الحب والرحمة مكان البغض والانتقام . وقد استجاب الأساقفة لهذا الطلب الشريف .

ويستفاد مما تقدم أن الأمم الراقية تتطور ولا تبالى باصطناع البدع حتى فى صلاتها وهى أقدس ما عندها تحول فيها وتبدل لكى توافق العصر الحاضر . فيجب أن نعتبر نحن بذلك ونرضى بالبدع فى الصلاة والزراعة واللباس والمسكن حتى تتفق معيشتنا فى القرن العشرين مع أهل القرن العشرين. ويجب أن نذكر أنه لو كان كل إنسان يلزم مسلك أبيه لما خرج الانسان من الغابة ولما عرف حضارة أو زراعة فإن الرقى يقتضى ابتداع البدع الجديدة والإيمان بأن الخلف خير من السلف وإن الإبن يبذ أباه فى الأخلاق الفاضلة والعلم الصحيح والثقافة الواسعة . وإذا كان لجدودنا إحن قديمة فليس من واجبنا أن نذكرها ونخلدها وإنما الواجب أن ننساها ونعيش مع الناس . أجل، مع جميع العالم بالحب والوئام كما هو مفهوم من التنقيحات التى وضعها الأساقفة الإنجليز للصلاة لأنه بهذا وحده يحبنا العالم وندخل فى زمرة الأمم المتمدينة نعمل لرقى العالم كله كما يعمل العالم لرقينا بالمخترعات والمكتشفات التى نستعملها وليس لنا فيها فضل الاختراع أو الاكتشاف .

مارى

فى سنة ١٩٨٣ ماتت فتاة روسية تدعى مارى بشكيرتسيف وهى فى الرابعة والعشرين من عمرها بعد أن أكل التدرن رئتيها وبرزت أضالعها كالقفص الفارغ .

والتدرن من الآلام البطيئة مما يبعث السأم فى النفس ويصدها عن ضروب التمتع ويحبب إليها الموت ولكن مارى كانت بعكس ذلك تحب الحياة وتشتهى البقاء . وقد تركت فى مذكراتها اليومية صورة قوية لهذا الجوع الذى كان يحثها على أن تلتهم العالم التهاماً وهذا العطش الذى كان يدفعها إلى أن تتذوق حلو الحياة ومرها . وهى فى اشتهائها للبقاء لم تكن تخضع لشهوات الدنيا بل كانت تسمو وتتشوف إلى أرفع مافى هذا العالم من مطامع وأغراض .

كتبت مرة فى مذكراتها تقول : ويبدو لى أنه ليس هناك أحد يستطيع أن يحب كل شىء كما أحبه - يحب الفنون الجميلة والموسيقى والرسم والكتب والاختلاط بالناس واللباس والترف أو التقزز والهدوء والضحك والدموع والحب والحزن والزهو والثلج والشمس ... إنى أحبها كلها وأعجب بها كلها . . . وأحب أن أرى هذه الأشياء بل أمتلكها وأعانقها واندمج فيها ثم أموت فى طرب هذه اللذة (لأنى لابد أن أموت بعد سنتين أو بعد ثلاثين سنة)

حتى أعرف سر هذا الختام بل سر هذه البداية » .

وكتبت مرة أخرى تقول : « إنى أحسد العلماء حتى أولئك المهزولين الذين يكسو وجوههم الشحوب والقبح » .

وتصيح مرة أخرى فى مذكراتها حين تقول : « ما الزواج وولادة الأولاد ؟ أليست الغسالات أنفسهن يقدرن على ذلك ؟ »

وهذه القطعة الأخيرة تدل على أن مارى قد احتقرت أشياء لم تكن دون ماتحب من حيث لذة الاختبار وبلوغ السعادة وربما كان احتقارها هذا علة كبرى للأسى العظيم الذى كان يتملكها ويملأ أحياناً فؤادها غضبا وحنقا .

وقد كان يقال أن الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى . وكذلك يمكننا أن نقول من مثال مارى هذه ومن مثال باربيون الذى سبق ذكره أن الدنيا جميلة لايرى جمالها إلا من أوشك أن يغادرها . فى كلتا الحالتين نرى أن باربيون ومارى يتعلقان أشد التعلق بالحياة يريدان أن يستوعبا كل ما فيها من لذة أو متعة كما يريدان أن يختبرا خيرها وشرها ويقفا على كل مايمكن علمه من علومها وآدابها وفنونها . وما ذلك إلا لأنهما عرفا أن المرض يوشك أن يقطع بينهما وبين هذه الدنيا فانكبا عليها وانغمسا فى درسها وفهمها .

وما أحرانا ونحن بعد فى صحتنا أن نعرف لهذه الدنيا قيمتها فنقبل عليها ونتمتع بها فندرس علومها ونسبح فى أرجائها ونستكنه

أسرارها قبل أن يحملنا هذا التيار الجارف الذى يحمل جميع الأحياء إلى محيط الأبدية . وإنما يكون إقبالنا عليها ونحن بعد فى شبابنا قبل أن تستولى الشيخوخة علينا وقبل أن تتكون لنا عادات تمنعنا من هذا الدرس والتمتع . ولكن يجب ألا ننسى أن التمتع ضروب : عالية وسافلة . فمن الناس من يتمتعون بالنهم للطعام أو النوم بعد الظهر أو نحو ذلك من الملاذ التى كان ماربيون ومارى يترفعان عنها ويجدان أن الحياة أقصر من أن تنفق ساعاتها فى مثل هذه الملاذ الخسيسة . فإن النوم يضعنا فى صف النبات من حيث الوعى بهذا العالم ويغيب أذهاننا التى هى أقوى أدوات تمتعنا فيجب لذلك أن نأخذ منه بأقل مقدار يكفى لصحتنا . أما النهم فأليق بالحيوان منه للانسان . وخلاصة القول أننا مادمنا نعيش فى العالم فإننا يجب أن نتمتع به وأن نتأنق فى تمتعنا حتى لانخرج منه إلا وقد شبعنا مما فيه من اللذات السامية ووقفنا على ما يمكننا من أسراره . وبعبارة أخرى يجب أن نحيا على الأرض لكى نعيش ونختبر ونتعلم لالنقضى عليها حياتنا فى سبات الغفلة كأننا نوع من الأشجار .

وكذلك يجب أن نحذر تلك الحياة الضنينة التى يقصر المجهود فيها على تحصيل العيش والمبالغة فى الإثراء حتى يصبح صاحبها كأنه فرس العربة بينه وبين العالم عمامة تغم على عينيه فلا يرى إلا ما أمامه . فإنما الحياة الوفيرة تلك الحياة التى يقول بها السيد المسيح تقتضى أن نتمتع بالنواحى العديدة التى تعرض لنا من هذه الدنيا . وهذه الناحية لاتنحصر فى تحصيل العيش .

هل اخترعت مصر الحضارة ؟

مما يؤسف له أكبر الأسف أن الجامعة المصرية لم تستطع إغراء الأستاذ اليوت سمث للقدوم إلى مصر والتدريس بالجامعة . فقد بخلت عليه حكومتنا بخمسمائة جنيه مع أن مثل هذا الرجل لا يضن عليه بمال وخاصة بالنسبة إلينا نحن المصريين . فإننا أمة تحتاج إلى الدعاية فى أوربا لتحسين سمعتنا عند الأوربيين ورفع مقامنا فى عيونهم وليس فى العالم رجل رفع من شأننا وجعل لنا المقام الأول فى التاريخ مثل اليوت سمث .

كان اليوت سمث قبل عشرين سنة أستاذاً فى مدرسة الطب بقصر العينى وكان يدرس الجماجم المصرية القديمة ويقابلها بالجماجم الحديثة فى مصر وأوربا وآسـيا ، وكان التشريح درسه الأصلى ولكن هواه كان فى المصرلوجية ينقب عن الآثار ويبحث عن جماجم أسلافنا ويقيس رءوس الفراعنة ويستقرىء أدوات مصر القديمة وآلاتها . وفى أحد الأيام حوالى سنة ١٩٢٠ التمع بذهنه خاطر غريب . وهو أن المصريين أول من عرفوا الزراعة والحضارة فى العالم وأن الآثار الحجرية التى توجد الآن بانجلترا أو بالهند أو بأمريكا هى من آثارها بالذات أو بالثقافة المنقولة إليها عن مصر .

وهذا الخاطر الغريب قد صار علماً يتباحثه العلماء فى جميع أقطار الأرض المتمدينة وصارت له كتب ضخمة ومختصرة قرأت أنا وحدى منها إلى الآن ثلاثة كتب وسأوالى القراءة فى هذا الموضوع إلى يوم أموت . وذلك لا لأنى أجد فى الكتب علماً صحيحاً وكشفاً عظيما لتاريخ الإنسان فقط بل لأنى أشعر فيه من الارتياح بل الزهو ما يجعلنى أنبسط لقراءة هذه الكتب الجديدة وأهش لهذه النظريات الرفيعة .

وكيف لا أزهى ، بل كيف لا تزهو أنت أيها القارىء المصرى عندما تعرف أن الأقدار قد اصطفتنا من بين أمم العالم كله لكى ننشر على الناس مبادىء الحضارة ونخرج الانسان من بداوة الغابة والصحراء إلى الزراعة والصناعة ؟ ونخطط أول المدن ونرسم أول الحكومات ونخلط أول الآلهة ونستنبط النحاس والذهب و ننحت الحجر وننشىء علمى الكيمياء والفلك ونضع للناس — أجل لجميع الناس شرائع الزواج ؟ .

هذا ما يقرره الأستاذ اليوت سمث هو وطائفة كبيرة الآن من العلماء . وهذه النظرية ترفع من مقامنا فى عيون العلماء الذين كانوا يعتقدون أننا شرقيون منحطون لا ننتفع من العالم ولا ننفعه . ثم هى مع ذلك نظرية صحيحة يدعمها الاستقراء ويقول بها غير المصريين من العلماء .

ولكن الأستاذ اليوت سمث يزيدنا وجاهة ومقاما فى التاريخ من حيث أنه يقول أن المصريين كانوا شعباً لا يختلف من حيث بنية الجسم واللون من الشعوب التى كانت تعاصره فى ذلك الوقت فى انجلترا وأسبانيا وايطاليا . وهو يقول ذلك بناء على مشاهداته عندما قابل رءوس المصريين القدماء برءوس قدماء الأوربيين . وإذا عرفت أن بعض العلماء يعتقد أن أسلافنا كانوا همجاً ، وأن البعض أيضا يعتقد أنهم يمتون إلى أصل منحط أدركت قيمة هذا البحث الجديد فى الدعاية لمصر .

والخلاصة أن العلماء يتجهون فى أيامنا إلى القول بأن مصر هى التى أفشت الحضارة فى العالم وأن المصريين القدماء لم يكونوا أمة همجية ، بل كانوا أمة متمدنة مثقفة . وأن ثقافتها هذه هى التى يسرت على أوربا اصطناع حضارة المصريين لأن الأوربيين وجدوا أن القائمين بهذه الحضارة يمتون إليهم بنسب الدم وقرابة العصب فلم يتوجسوا شراً من بدع المصريين بل نقلوها واصطنعوها وارتقوا بها .

والآن أيها القارىء أسائلك : إذا كانت الأقدار قد قيضت لآبائنا أن يثبوا بالإنسان إلى نور الحضارة فهل يليق بنا نحن أبناؤهم أن نركد فلا نبتدع ولا نثب ؟

كلا . إننا لن نكون حفدة أولئك الجدود العظام مالم نقف فى مقدمة الأمم نعمل لخير العالم ، عملا ينطوى على النية الحسنة التى انطوا عليها ونبشر بحضارة جديدة ونغامر من أجل رقى الإنسان نركب الطائرات ونخترع فيها ونلتحق بتلك الشعوب التى خرج منها هؤلاء الجدود فنلبس لباسهم ونسير معهم ونتثقف بثقافتهم .

أغانينا

أليق الأوصاف للأغاني التي نغنيها وأكثرها وروداً على ألسنة الكتاب حين ينعتون أحد المغنين بالبراعة والتبريز وصفهم أصواته بأنها « مشجية » . ولم يكن من العبث أو السهو إطلاق هذا النعت على أغانينا لأنها على الدوام ، كما يدل معنى الشجى ، محزنة . وهذا الحزن يبدو فى هذه الألحان الممطوطة التى تشبه البكاء والعويل بحيث لو سمعها غريب عن لغتنا لاعتقد إننا نندب ولا نغنى . وقل مثل ذلك أيضا فى ألحان الموسيقى ونغماتها فإنها تتســـاوى وأغانينا إذ هى مشجية تستثير فينا الحزن وتستخفنا إلى الطرب الذى يتولد فى النفس من الأسى والشقاء . ومصداق كلامنا يتضح إذا عرفنا أن بعض المغنين إذا غنى وكذلك بعض الناس إذا سمعه ترقرق الدمع فى أعينهم وانكسرت قلوبهم وصاحوا جميعاً « آه » . وهل يتأوه الإنسان إلا من وجع وحزن ؟ . وهذا القول يتضح أكثر إذا قابلنا أغانينا بأغانى الأوربيين وقارنا حالة النفس المصرية عقب الغناء أو الموسيقى بحالة النفس الأوربية . فالأغانى الأوربية تبهج النفس وتستخفها إلى طرب الفرح حتى ليشعر المستمع أن أعصابه تتفزز ويود لو يقف ويرقص . أما أغانينا فنستخفها إلى طرب الحزن حتى لنود أن نبكى ونشعر كأننا نأسف على ما فات ونخشى ما هو آت .

وليس شيء في العـالم يدل على حالة الأمة النفسية من أغانيها وموسيقاها لأن الألحان تعبر عن النيات المستكنة في النفس وهي تنبع منها عفواً كما ينبع منها البكاء أو الضحك . وإنما غلب الحزن و «الشجي» على أغانينا لهذا الظلم الطويل الذي قاسيناه في أكثر من ألف سنة مضت حتى أصبحت نجوانا إلى الله والدهر نجوى المحزون اليائس . وإنه لما يدعو إلى التأمل ولا يخرج عن موضوعنا أن يتلبس «الدهر» الذي ليس في معناه في الأصل سوى الزمن بمعاني الكوارث والنكبات .

أجل . لقد قاسينا عذاب الولاة والحكام الجائرين في القرون الماضية حتى صرنا إذا أردنا أن نشدو ونغني بكينا وندبنا . لأن العالم يبدو لنا قاتماً إذا خلونا إلى أنفسنا انطلقت هذه الأنفس التعيسة بالبكاء والندب وتجاوب القيثار والمزمار مع صدى أحزاننا فردها إلينا ألحاناً نكاد نحس فيها نشيج الباكي الولهان وآهات الموجع المحزون . ولكننا نرى الآن أنه قد آن لنا أن نغير أغانينا وألحاننا . وذلك لأن نفوسنا التي كان يرهقها وأحياناً يزهقها ظلم المماليك العبيد من أكراد وأتراك قد تحررت وازدهى العـالم في وجهنا بعد القتام . فجدير بنا أن تكون أغانينا مفرحة مبهجة تملأ نفوسنا تفاؤلاً ونشاطاً وتجعل شبابنا يتفزز إلى العمـــل والأمل بدلا من هذه الأغاني

والألحان الحاضرة التي تكرب نفوسنا وتكبتها وتشل فينا الأمل وتحثنا على البكاء .

ولسنا نعني بذلك أن تكون أغانينا مقطوعات مضحكة وإنما نعني أن تكون طبق الحياة فيها المحزن والمضحك كما أن فيها الألم والفرح . لأنه إذا لم تكن الحياة مهزلة فهي ليست أيضاً مأساة وإنما هي درامة عادية تختلف فيها الوقائع والعواطف . ولكن كما أن المريض يجب أن يفكر في الأمل أكثر مما يفكر في الألم كذلك يجب أن تشرب أغانينا وألحاننا الموسيقية روح التفاؤل والبهجة والرغبة في الرقي . ولا يكون ذلك بتأليف القصائد التي كان يغنيها مغنونا إلى عهد قريب في مدح عبدالحميد وعباس وفي تلحين القصائد القديمة لابن الفارض وأبي فراس . وإنما نريد من شعرائنا أن يؤلفوا القصائد من الكلام المصري العذب الذي هو وليد ألسنتنا وقلوبنا لا من الكلام الجافي الذي دونه الزمخشري في معجمه قبل ألف سنة . ولقد كان كونفوشيوس يقول : لست أبالي بمن يسن للناس شرائعهم وإنما أبالي بمن ينظم أغانيهم .

ذلك أن للأغاني تأثيراً في النفس أبلغ من تأثير الشرائع . وذلك لأن الأغنية تخرج من المغني لحناً يستبطن النفس .

في الأدب العالمي

ساء بعضهم ماقلته من أني أعزو تأخرنا إلى أننا ما زلنا نعيش في عصر الزراعة والأدب مع أن العالم الراقي يعيش الآن في عصر الصناعة والعلم . وتوهم من قولي أني أحض الناس على أن يهجروا الأدب وألا يتدارسوا سوى العلوم . الأمر الذي يدعوني أحياناً إلى الاقتضاب فلا أتوسع في الشرح ويصعب عندئذ توقي الخطأ . ولذلك أراني محتاجاً إلى العودة إلى هذا الموضوع بشيء من الإيضاح .

فهذا الأدب الذي نتدارسه الآن في مصر هو أدب منحط لاينهض بنا لأنه لايمس حياتنا ، وهذا أيضاً مع استثناء القليل منه الذي يحاول فيه أدباؤنا درس الحياة المصرية . وذلك لأن الأدب لا يخرج عن أن يكون نقداً للحياة . والجري على قواعد السلف يجعل أدبنا كالعدم ، وهذا كان حال الفنون في عصر البيزنطيين . ويمكنك أن ترى أثر هذه القواعد إذا زرت كنيسة قبطية في القاهرة حيث ترى الصور البيزنطية على جدرانها تجري على قواعد مأثورة فترى الأجسام جامدة لا تلين للعاطفة ولا تؤديها . ويقابل هذا الجمود في رسم الصور عند البيزنطيين جمود شعراء العرب ومنشئيهم

فى الشعر والنثر إذ جروا على قواعد مأثورة وهجروا الحياة فجمد الأدب العربى جمود الفن البيزنطى . ولهذا السبب لا تجد للقصة فى النثر أو للملحمة فى الشعر ولا للدرامة ذكرا فى الأدب العربى لأنه كما قلنا قد هجر الحياة . والقصة والملحمة والدرامة كلها تتعلق بالحياة . وجرينا نحن على مأثور هذا الأدب فصار أدباؤنا فى وادوالأمة فى واد بحيث أنه عند ماهبت الأمة فى سنة ١٩١٩ فوجىء الأدباء بيقظتها فاذا بالآية معكوسة . فبدلا من أن ينبه الأدباء هذه الأمة إذا بها هى تنبههم . ومهما قيل فى ثورة ١٩١٩ فان الحق الذى لا ينكر أن أدباءنا لافضل لهم فيها ، وعلة ذلك كما قلنا إن أدبهم كان جامدا تقليديا منحطا لا يمس الحياة وبالتالى لا يوقظ الأمة

هذه واحدة . أما الثانية فهى أن الأدب الحديث قد أصبح أدبا علميا يعتمد على علم النفس والعمران . فهو بذلك علم من العلوم قد ترخص فيه الكاتب إلى استعمال لغة العامة بدلا من أن يستعمل لغة العلم . ولكن طريقته هى طريقة العلوم وغايته غايتها . وهذا مثلا هو الأدب الروسى الذى يقتدى به فى كافة أوربا ويحاول المؤلفون أن يحتذوا مثاله ليس له ميزة سوى أنه أدب علمى . فهذا مثلا دستوفسكى يكتب « قصة الأبله » أو « الجريمة والعقاب » كأنه طبيب شرعى يكتب تقريرا عن أحد المجانين . وهذا أيضا تورجنيف قد مارس الطب قبل أن يمارس الفن القصصى . وهذا أيضا ولز القصصى الانجليزى

المعروف له كتاب فى تشريح الأرنب . وهـــذا باربيون صاحب اليوميات عالم فى التاريخ الطبيعى . بل أدباء الخيال أنفسهم مثل جول فرن وكونان دويل وجاك لندن يبنون خيالهم على قواعد العلم

فالأدب الحديث ينزع إلى العلم وهو من هذه الوجهة لا يقل عن العلم شرفا أو امتاعا أو منفعـة وإن كان مع ذلك يتوسل بالعبارة السهلة وبلوغ الجماهير دون العلم الذى يقنع بلغة الأختصاصيين ويقتصر عليهم

فاذا أنا تأسفت على أن نهضتنا أدبية زراعية وليست صناعية علمية كما هى فى أوربا الآن فإنما أعنى بذلك إن أدبنا ليس علميا بل هو أدب تقليدى جامد يجرى على قواعد ومحفوظات لا تتحرى بحث بحث الحياة ولا غاية له . وأن أدباءنا يسيرون فى أدبهم مثل منادرة الصين الذين يستظهرون القديم ويجترونه ثم يقيئونه على الناس. وأنا مضطر هنا إلى التعميم المخل لأن المكان لا يتسع للشرح فكان يجب أن أقول مثلا أن تيمور يمس الحياة المصرية وإن عندنا غيره قلة تحمد طريقتهم

ولـكن هل هذا يمنعنى من أن أقول ان الامم الهمجية قد تعلمت الزراعة وانها ستزاحمنا فى أسواق العالم لقلة حاجات عمالها وقلة أجورهم وإننا لذلك يجب أن نعمد إلى الصناعة الالية حتى نثرى ونتسع ونستعمر قطرنا هذا ؟ ثم هل هذا يمنعنى من أن أقول انه يجب أن نهجر الأدب كما يمارس فى أكثره الآن من حيث قيامه على جودة العبارة وحلاوة اللفظ واجترار القدماء وادمان التفكير فى ابن الرومى وأبى تمام نكتب بلغتهم ونرطنها رطانتهم ؟

تربية الفتاة المصرية

منظر الفتاة المصرية وهى فى ذهابها إلى المدرسة أو إيابها منها من أجمل المناظر الطبيعية . فهناك ترى الشباب مقروناً إلى الحياة والعفاف يزينه التأنق وســـذاجة التلمذة لا يشوبها أدنى هم من هموم المعاش .

ونحن المصريين ليس شىء فى العالم نهتم له ونفكر فيه ونرجو منه الخير مثلما نهتم للمرأة المصرية ونفكر فى شأنها ونرجو منها الخير لبلادنا فى المستقبل . ولذلك فأبهج المناظر لدينا هو منظر الفتاة المتعلمة . نتأملها مغتبطين نأتنس بها ونجد فيها الزوجة المستنيرة التى تغذ وأعيننا وقلوبنا بمرأى الأطفال النظاف والأثاث المرتب .

وإنما نعلق هذا الرجاء على المرأة المصرية لأننا نجد فيها سبيل السعادة والحضارة معاً . فهؤلاء الأوربيون يسبقوننا فى أشياء كثيرة ولكن أعظم مايسبقوننا فيه عنايتهم بالمرأة . فقد رفعوها إلى مستواهم وعلموها واكسبوها جميع الحقوق الدستورية والمدنية فاستجابت هى لهذه العناية وأصبحت رفيقة الرجل وزميلته فى بيته وجعلت هذا البيت جنة تغريه بالإقامة فيه وذلك فى حين أننا لانقيم بيوتنا إلا سواد الليل وأوقات الطعام كأنها فنادق أو مطاعم .

ثم نحن نرى كثرة الوفيات بين الأطفال عند الأوربيين فنعزو ذلك إلى سوء التعليم أو عدم التعليم . ثم هذا التفاوت بين تربية الشاب المصرى ، التى لا تقل الآن عن تربية الشاب الأوربى، وتربية المرأة التى لا تختلف أحيانا عن تربية جدتها، قد يكون أحيانا كثيرة مثارا للخلاف بين الزوجين . لأن الزوجة تعاشر زوجها وتحادثه فاذا لم يتفقا فى الأذواق والمشارب والأخلاق ساءت بينهما العشرة . وهذا الاتفاق لن يكون حتى تتعلم المرأة المصرية وترتفع إلى مستوى زوجها.

ومن هنا ذلك الفرح الذى نشعر به كلما سمعنا بافتتاح مدرسة للبنات أو رأينا فتاة مصرية متعلمة . ومن هنا أيضا ذلك الحب الذى نشعر به الآن بعد جحود طويل لقاسم أمين ، فقد فتح أعيننا وقسرنا على أن نرى العالم كما هو ووضع أصبعه على الجرح عندما عزا تأخرنا إلى جهل المرأة المصرية وحجابها .

فنحن كلنا الآن بفضل قاسم أمين نرغب فى تحرير المرأة وتعليمها. ونحن كلنا الآن نعرف أنه كان على صواب فى دعوته وان الذين قاوموه أو شتموه مثل الخديوى وطلعت حرب ووجدى وغيرهم كانوا على خطأ . ونحن كلنا الآن نفرح بانتشار المدارس ونأمل فى اليوم القريب حين نرى فى مصر مثلما نرى فى أوربا القاضيات والطبيبات والمحاميات وربات البيوت المتعلمات .

ولكن تربية الفتاة المصرية يجب أن نسير فيها بحذر ونرى منها

إلى غاية هى أن تكون فتاة متحضرة مثقفة تعيش فى بيتها عيشة النظافة العلمية حتى لايموت واحدمن أولادها . وتستطيع أن تجارى زوجها فى تجديد ثقافته حتى لايحدث التفاوت شقاقا بل تستطيع ، إذا مات، وكان صاحب متجر أن تدير متجره أو صاحب أرض أن تزرعها بدون حاجة إلى وصى يأكل أموالها وأموال أيتامها . فهى فى حاجة لذلك إلى تربية حديثة أبعد ماتكون عما تناله الآن فى المدارس الأولية . فإن لنا آراء شرقية يوهمنا كبرياؤنا الوطنى أنه يجب علينا أن نحتفظ بها فى المدارس ولو تحققنا خطأها . وهذا غلط فاحش يجب أن نكف عنه . ولكن يجب أيضا أن نكف عن ذلك السخف الذى يدعونا إلى تعليم الفتيات قشور الفرنسيه والانجليزية .

شر مافى تربية الفتاة المصرية ذلك الزهو الكاذب الذى يدعو الآباء إلى تعليم فتياتهن مبادىء اللغة الانجليزية أو الفرنسية لأن الرطانة ببضع كلمات تدل كما قلنا على السخف والزهو لاعلى التربية. وإنى واحد من الذين عالجوا تعلم اللغات وأعرف من اختبارى الشخصى أن المعرفة اللازمة لقراءة كتاب ناضج فى الانجليزية لاتحتاج إلى أقل من ٥ سنوات فى الدرس الجدى المتواصل . وأية فائدة تنالها الفتاة من اللغة إذالم تستطع قراءة كتاب فيها ؟

عدو الظلم والاضطهاد

من الناس من تقرأ ترجمتهم فكأنك بذلك تقرأ قصيدة سامية حوت من المعانى أشرفها ومن المقاصد أعلاها . فتقرأ وأنت فى لذة وطرب تشبهان ما تشعر به عند سماع أحد الأدوار الموسيقية الأنيقة

وإذا كانت حياة كل منا تجرى أو بالأحرى تمشى فى طرق مألوفة معبدة لا تصطدم بصخرة ولا تقاومها موجة حتى كأنها النثر السلس فان فى حياة الأبطال أمثال فولتير وجيته من الشعر والإيقاع والموسيقى ما يجعلنا نتصفح حياتهم ونعاود التصفح كما نعاود سماع قطعة موسيقية مطربة

ثم كلما ألمت بنا مصيبة من طاغية يطغى أو رئيس يتنطع فى السياسة أو الدين عدنا إلى فولتير فنجد فيه العزاء والدواء . فقد أمضى حياة طويلة بلغت ٧٣ سنة وهو يحارب الجور والاضطهاد ويزرع فى الناس بذور الحرية ويداور الحكام الطغاة ويمكر بهم ويطبع كتبه بغير اسمه لأنه لم يكن يبغى منها الشهرة بل كان يبغى نشر الأفكار والاراء ولكن الشهرة جاءته حتى أنه عندما زار باريس فى آخر حياته كانت رحلته من سويسرا إليها فى رأى أحد

الأدباء الانجليز ، من أكبر حوادث القرن الثامن عشر ، لكثرة من وفد عليه من الأهلين لرؤيته حتى كانت سفرته أشبه بالموكب منها بالسفر المألوف

وحبس ڤولتير مرتين فى الباستيل شبح السجون ورمز الاضطهاد ونفى مرة إلى انجلترا وكل ذلك فى سبيل رفعة الإنسان وتحريره من الخرافات وهدم السلطات الجائرة . ولكنه عاد من انجلترا وقد ازداد قلبه قوة وتقديراً للحرية

وإذا ذكرنا ڤولتير ذكرنا ابتسامته التى لاتفتأ تلعب بل ترقص على شفتيه ، ابتسامة الحنان والشفقة للمنكوبين والمظلومين ، وابتسامة التهكم والتقريع للطغاة والظلمة . فقد حكى أنه عندما خرج من الباستيل بعث بخطاب لملك فرنسا يقول فيه : «أرجوك يامولاى ألا تكلف نفسك فى المستقبل نفقات مسكنى »

ولما أعياه المرض وانطرح على فراشه وأخذ فى نزع الموت حاول الذين حوله أن يستخلصوا منه اعترافاً فقال لهم : « أموت فى حب الله وحب الأصدقاء لا أكره أعدائى وإنما أمقت الخرافات» فوضع بهذه الكلمات قانوناً جديداً للإنسان

وفى سنة ١٧٩١ أى بعد أن مضى على موته ودفنه ١٣ سنة أخرج أهل باريس رفاته وحملوه فى موكب على نعش كأنه عرش

يحف به الزهر ويتعالى حوله الهتاف ويسير الناس وراءه بالالاف هذا يصفق وهذا يهتف وهذا يبكي من الفرح وهذا ينشد له مقطوعة من الشعر وهذا يحمل في يده حكمة مما فاه به في حياته حتى إذا بلغوا الباستيل الذي حبس فيه مرتين وكان الباريسيون قد هدموه وضعوه على أنقاضه وقد كتبوا فوق نعشه : « وفي هذه البقعة حيث قيدك الاستبداد تقبل طاعة الأمة الحرة »

ولكن يجب ألا ننسى شيئاً قاسياً مفجعاً حدث في هذه المظاهرة الحرة التي أعلن فيها انتصار الحرية على الاستبداد . فبينما كان أهل باريس يحتفلون بملك الأدب ويسيرون وراءه رءوسهم عارية، والناس في بيوتهم يشرفون من النوافذ ويهتفون عند مرور النعش بهم ويدعون بالحياة لهذا الميت، كان في باريس شخصان اثنان يسمعان الهتاف ولا يطلان من النوافذ . وهذان الشخصان هما الملك لويس السادس عشر والملكة ماري أنطوانيت زوجته .

والآن كلنا يحب فولتير وكلنا يقرأ حياته كما يسمع دوراً من الأدوار الموسيقية المطربة وكلنا يقرأ مؤلفاته التي تبلغ نحو التسعين وكلنا ينتفع بهذا الحكيم الذي بذر البذرة الصالحة فأثمرت في العقول وكسرت شوكة الظلم والاضطهاد . وكلنا أيضاً يشعر بشرف هذه الحياة التي أمضيت في خدمة الإنسان .

ولكن ثم شيء سافل يجب أن نذكره بجانب هذا الشرف وهو أنه فى سنة ١٧١٤ عندما عادت الملوكية إلى فرنسا أمر الملك فأخرجت جثة فولتير من مدفن العظماء فأحرقت بالجير وبعثرت . ولكننا مع ذلك نذكر الان فولتير ولا نذكر اسم هذا الملك النكرة ونعجب بشهامة الأول ونشمئز من سفالة هذا الثانى

القرية المصرية

ليس فى العالم بلاد اشترك فيها الحظ الحسن مع الحظ السيء فى تاريخها مثل بلادنا . فبينما نرى تاريخنا مجيداً عظيما فى عصر الفراعنة أو الفاطميين نراه قبيحاً حقيراً فى عصر المماليك والأتراك. فإننا نقرأ الآن تاريخ هؤلاء . ونعجب للعلة التى منعت الناس من قتل ولاتهم الظلمة مع أنهم كانوا فئة قليلة سافلة الأخلاق لا تستطيع أن تصبر على جلاد . ولكننا إذا تدبرنا الثقافة السائدة فى تلك الأيام عرفنا علة هذا الخضوع للظلم فى آبائنا ورددناه إلى أصله وهو أنهم كانوا بحكم هذه الثقافة متواكلين يقولون بالخضوع لأولى الأمر والطاعة للسلطان . ونحن نحمد الأقدار الآن على أننا لانخضع لأولى الأمر إذا خرجوا عن دستور البلاد وأننا منذ سنة ١٩١٩ قد عرفنا أن للثورة فائدة ترد الظالم إلى عقله وتنزع من الغاصب سلطانه . ولكننا ما زلنا ننظر إلى بعض شئوننا نظر آبائنا مدة المماليك وخاصة فى نظرنا إلى أخينا وأبينا وعمنا وابننا: هذا الفلاح. فقد كان المماليك أجانب عن البلاد حمر الوجوه زرق العيون لهم فى معيشتهم وأجسامهم نعومة مزرية وكانوا ينظرون إلى الفلاح المصرى كما ينظر الأبيض إلى الزنجى يحتقرونه ويسخرونه لأعمالهم ويسرقون

أمواله ويهتكون أعراضه من ناحية ، ومن الناحية الأخرى يبنون المساجد والأضرحة له ويحبسون الأموال التى اغتصبوها منه على الأربطة . فكانوا فى صلاحهم أشبه بالمجرم يساوم ربه على الحسنات والسيئات يقيم الأولى حتى يستطيع أن يترخص فى الثانية . ونحن وإن كان حكم المماليك والأتراك الفعلى قد زال من البلاد زوالا أبديا فإن حكمهم المعنوى لايزال قائماً فى احتقارنا للفلاح والصانع، ولذلك فان القرية المصرية مع تقدم العمران فى بلادنا وارتقاء أحوالنا الاجتماعية لا تزال كما كانت مدة المماليك أكواخا قذرة من الطين المجفف بالشمس . ولا تزال هذه الأكواخ خالية من مبادىء الصحة والنظافة ليس فيها مراحيض أو مطابخ يختلط فيها مكان الماشية بمكان الناس . وبينما ينفق بعض الأفراد فى بلادنا ألوف من الجنيهات فى العام لاينفق الفلاح أكثر من عشرة جنيهات هو وعائلته يعيش بها وهو فى بؤس وقذر وفاقة لازمة .

وريفنا جميل تنبسط فيه الأرض بساطاً أخضر يغذو العين بنضرته طوال السنة ولكن القرية المصرية تبدو فيه كالرمة البالية كدرة غبراء وبيئة لاتنزح عنها الأمراض حتى أن الأجنبى الداخل لمصر يجزع لرؤيتها ولا يكاد يصدق أننا أمة متمدينة . ولقد زارنا ابن سعيد وهو شاب أندلسى مدة الأيوبيين وهم الملوك الأكراد الذين حكموا مصر فى القرن الثالث عشر ، فما راعه شىء بعد جمال

الأندلس مقدار ما راعه منظر القرى المصرية حيث قال : « ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها » .

ولابن سعد الحق فى أن يقول هذا القول عن قرانا فقد نشأ فى أوربا بين القرى الأندلسية . ومن يعرف القرية الأوربية يجزع من رؤية قرانا ويهوله ما فيها من قذر وكدر . فإن القرية فى فرنسا متنزه جميل قد كسيت شوارعها بالبلاط . وفى هولندا تغسل الفلاحة جدران بيتها بالماء والصابون ولا تدخل الماشية من الباب الذى يدخل منه أهل البيت . ومعظم القرى تضاء الآن بالقوة الكهربائية وإذ بلغ الفلاح سن الستين فى انجلترا نقدته الحكومة معاشا سنويا قدره ٨٠ جنيها .

ونحن فى مصر قادرون على كل ذلك لا يمنعنا منه سوى التقاليد التى ورثناها عن المماليك والأتراك فى احتقار الفلاح والفلاحة . وهؤلاء كان لهم العذر القبيح فى أن الفلاح كان أجنبيا عنهم لا يتكلم لغتهم ولا هو ناعم البشرة أزرق العين مثلهم . ولكن كيف يقوم لنا نحن عذر وهذا الفلاح هو من لحمنا ودمنا ؟

قصيدة الحياة

لقد أتاح لى الحظ الحسن أن أجالس عظيما انجليزى المولد وطنى العالم عرضت معه تاريخ حياته فكانت كالقصيدة العصماء تخرج منها من بيت سرى إلى آخر أسرى وتجتاز بالموقف الشريف إلى موقف أشرف وأنصع . وهذا العظيم هو السير ويلكوكس

وحياة السير ويلكوكس قصيدة لا تتخللها أدنى ركاكة أو تفاهة عاش إلى الثلاثين فى الهند وكان يشتغل بالهندسة وبشيء آخر لا يزال يشتغل به إلى الآن وهو يحبو إلى الثمانين أعنى به البر .

فالسير ويلكوكس رجل يحترف البر منذ شبابه إلى الآن . كان وهو مهندس فى القرى الهندية يعالج المرضى ويغسل لهم جروحهم بيديه ويحادثهم عن المسيحية ويحادثونه عن البرهمية . وهو لا يزال للآن ذلك الرجل البار القديم يعمل فى أحد المستشفيات فى القاهرة يخفف آلام المرضى وينفق من ماله القليل على أرواحهم وأجسادهم

وهو مع أنه انجليزى يؤمن بفائدة الامبراطورية البريطانية ، فإنه وقف موقف الخصم لحكومته التى أتهمته بالقذف والفتنة لكى يدافع عن مصلحة مصر فى مياه النيل . فهو انجليزى بمولده ولكنه يدافع عن الحق ولو كان ضد بلاده

فهذا بيت مجيد من أبيات هذه القصيدة العصماء . ولكن حياة ويلكوكس كلها جهاد فى الحق والبر وكلها تجارب سامية . نشأ فى الهند ثم قدم إلى مصر فوجد الفلاحين يسخرون بلا أجر فى حفر النهر فعمل على الغاء التسخير ورفع عنا وصمة قديمة وألما فظيعا كان يعانيه آباؤنا . ثم انتدب فى تقرير الضرائب فسار بها بالعدل بين الملاك . ثم سافر إلى خط الاستواء بين الزنوج فى البحث عن مياه النيل ووضع الترسيمات للخزان وانتدبته حكومة العراق لدرس أحوال الرى فقام أيضا بهذه المهمة وهو الآن فى شيخوخته الهنية يخدم المرضى ويواسى المنكوبين .

فأية حياة فى العالم أحفل من هذه الحياة بالجهاد فى سبيل الحق والخير وفى خدمة الانسان هنديا كان ، أم مصريا ، أم انجليزيا ، أجل . إنها حياة مملوءة بالتجارب السامية . رأى صاحبها خط الاستواء وحره المزهق وناسه الهمج كما رأى ثلوج انجلترا وحضارتها الراقية ورأى الهند كما رأى مصر والعراق . وله ضمير كلما عاد إليه أذكره ببره للفلاح الهندى أو المصرى فيرتاح للذكرى ويأنس إلى هذه النفس السخية التى ناداها الحق فاستجابت لندائه واصطرع فيها العالم والوطن فآثر العالم على الوطن . ان فى حياة معظم الناس وفى أخلاقهم من الجبن والأنانية مايجعلنا نكره الناس ولكن فى حياة ويلكوكس ما يجعلنا نؤمن بالانسان وننظر إلى

المستقبل بعين الرجاء حين يصير الحق غاية والعالم وطناً وخدمة الإنسان الغرض الأسمى من الجهاد .

وينوء السير ويلكوكس الآن بهمين ثقيلين من همومنا المصرية الأول أن الفلاح المصرى يزرع الأرض ولا ينال إلا أجراً يسيراً على كده وكدحه ، والثانى أننا لا نكتب بغتنا المصرية العامية دون العربية القديمة وهو يقول بوجوب تحديد الإيجارات بنسبة الضرائب وأيضاً بتدوين العامية حتى يتيسر للفلاح أن يقرأ بأقل عناء . وليس شك فى أن الرجل ينوى الخير لنا فى كلا القولين . وقد عاش فى مصر أكثر من ٤٥ سنة ومارس من شؤون الفلاحة والرى ما لم يمارسه كثيرون منا وعرف الفلاح القديم الذى كان يعمل مسخراً والفلاح الحديث الذى خرج فى سنة ١٩١٩ يقطع السكك الحديدية ويطلب الاستقلال . ولكنى أنا لا أبالى بآراء السير ويلكوكس مقدار ما أبالى بحياته . فهذه الحياة يجب أن تكون قدوة لكل منا لأن هذا الرجل قد عاش تلك الحياة الخصبة الوفيرة حياة العمل والجهاد للحق والعدل والخدمة للناس واحتفظ بصحة الشباب فى سن الثمانين وتمتع بأرقى ما يتمتع به الإنسان الراقى من التجارب والاختبارات .

كيف نربى أنفسنا

نحن نعيش مرة واحده فى هذه الدنيا فمن واجبنا أن نعيش فيها أحسن عيش مستطاع نسكن أفضل المنازل ونقرأ أفضل الكتب ونأكل أشهى الأطعمة ونتمتع برؤية الأقطار المختلفة ونزداد بتقدم العمر حكمة وصحة وتجارب وعلما .

ولكننا لن نستطيع هذه العيشة ما لم نعمد إلى أنفسنا فنربيها ونعودها العادات التى تساعدنا على الرقى فان الجسم الإنسانى سريع إلى الطاعة للعادة ينقاد إليها ويؤديها عن رضى وارتياح . وأنت عند ما تقرأ سيرة أحد العظماء تعجب لوفرة أعماله وتتساءل : كيف توافر له الوقت أو أسعفته صحته أو كيف أخلص له أصدقاؤه حتى أمكنه أن يؤدى هذه الأعمال كلها ؟

ولكن الواقع أن الوقت والصحة والفرص متوافرة لنا جميعا وإنما تضيع منا لأننا قد اعتدنا عادات سيئة . فهذا رجل يرجع فشله فى الحياة مثلا إلى أنه يضيع كل يوم من وقته نحو الساعتين فى الركود على القهوة وهو قاعد كأنه الماء الآسن لا حركة ولا تفكير ولا همة ، تخرج منه أنفاس الدخان فى كسل وتراخ كأنه يريد أن يموت . فهذا رجل لا يتمتع ولا ينتفع بالحياة ولا ينفع غيره .

وثم رجل قد اعتاد مخاصمة الناس فهو فى نزاع دائم مع كل من يعرف. يقضى وقته فى قيل وقال وفى مشاغبات فى المحاكم. وهو منغص مشغول فى غير شاغل مفيد طوال حياته.

فهؤلاء وأمثالهم قد اعتادوا عادات سيئة تقصيهم عن التمتع بالحياة بأرقى معانى التمتع. وقد يموت أحدهم فى سن الستين أو السبعين وعقله فى مستوى عقول الصبيان لم يتهذب بثقافة ولا بسياحة، لو عددت ما قضاه من الوقت على القهوة فى فارغ الشئون لبلغ عدة سنوات من عمره.

فنحن إذن فى حاجة إلى أن نربى أنفسنا ونعتاد منذ الصبا أو الشباب عادات تلزمنا مدى حياتنا فتزيد سعادتنا ومنفعتنا لأنفسنا ولغيرنا. وأهم هذه العادات تلك التى تحفظ لنا صحتنا مدى حياتنا فانه لا هناء ولا تمتع بلا صحة. وقد قيل أن من الناس من يحفر قبره بأسنانه لكثرة نهمه. ولكننا نعرف الآن أن الصحة تضيع بأشياء أخرى أيضا غير الطعام منها قلة الرياضة ومنها إعتياد الشراب أو سائر المخدرات.

ثم نحن فى حاجة إلى اعتياد الدرس بموالاة القراءة. فان الميزة الحقيقية التى تميز الانسان على الحيوان الآن هى أنه حيوان مثقف لأن المحرومين من الثقافة هم من الانحطاط بمثابة الحيوان. وإذا نحن عشنا بلا ثقافة لا نقرأ ولا نفكر فى تاريخ هذه الدنيا ومصيرها وعلومها وآدابها فاننا نعيش عيشة حيوانية. فيجب أن نغرس فى أنفسنا عادة الدرس ونعيش مدى حياتنا طلبة مجدين فى جامعة الدنيا.

ثم يجب ان نعتاد الرفاهية فلا نقنع بالدون من أى شىء. لا فى المسكن ولا فى الطعام ولا فى الشراب. والفنون الجميلة نفسها لا يبعثها فى نفوسنا سوى نزعة الرفاهية إلى نزعة الفهم أو التفهم. فيجب أن تتأنق فى الحياة ونعتبر المعيشة فنا جميلا نمارسه بذكاء وذوق. والعبرة على الدوام بالنزعة فما دمنا نتأنق فى المسكن والمطعم والملبس فاننا نتأنق فيما نقرأ فلا نرضى لأنفسنا قراءة كتاب سخيف او صحيفه خليعة كما لا نرضى بأن نعمل عملا ناقصا غير متقن لأننا نتأنق فى كرامتنا

وأخيرا يجب أن نعتاد المعاشرة الحسنة مع الناس وخاصة مع عائلاتنا حتى لا نعيش منغصين حاسدين محسودين فيذهب بجهودنا العصبى فى غير فائدة وتزيغ أبصارنا عن طريق الخير والمنفعة

وفى كل منا غرائز حيوانية إذا استسلمنا لها أنهكت قوانا واختصرت أعمارنا وعشنا بها كالبهائم فلا بد من أن نعود أنفسنا عادات الاعتدال فيها حتى تتوافر لنا من أبداننا قوة تقوم بتحقيق الغايات العليا من الدرس والمنفعة والتمتع بالمتع الأنيقة السامية التى لا يستطيع الحيوان أن يتمتع بها لأنها من احتكارات الانسان وبرهان رقيه

يجب أن نرتب حياتنا بحيث نستغلها إلى أقصى ما فيها. ولا يتيسر ذلك لنا حتى نعتاد عوائد حسنة فى ادخار الوقت والمال والصحة والتوفر بها كلها على الدرس والسياحة وخدمة الناس والعمل لرقى الهيئة الاجتماعية التى نعيش بين ظهرانيها بترقية العلوم والفنون

سعد والشبيبة

مما تمدح عليه شبيبة البلاد تعلقها بسعد ذلك التعلق الذى كان أشبه بالرباط السحرى بينها وبينه . وقد حاولت القوة الغشوم أن تقطع هذا الرباط فلم تفلح .

والشبيبة جديرة بالمدح لتعلقها بسعد لأنها إنما تعلقت باخلاصه للوطن ونشاطه فى خدمته وولائه على مبادئه وثباته فى إيمانه . وهذه صفات ، بل مناقب ، لو لم يكن يقدرها شاب فى نفسه لما قدرها فى سعد . لذلك كان تعلقه بسعد تعلقاً بالفضائل السامية التى تمثلت فيه .

ولكن سعداً كان على خلق عظيم وشبابنا يجهل بعض نواحى هذا الخلق . ونحن لذلك ذاكرون بعض هذه النواحى كى يقتدى بها الشاب فى خدمة نفسه وأمته . فمن ذلك أنه عاش طول حياته طالبا للعلم يدأب فى الدرس وكلما وصل إلى مرتبة من الرقى طلب ما هو أرقى منها . فقد نشأ شيخاً أزهريا معمما ثم خلع عمامته ولبس الملابس الافرنجية . ثم اشتغل بالأدب فصار محرراً فى الوقائع المصرية وألف كتاباً فى ذلك الوقت فى الانشاء لتلاميذ المدارس عمد فيه إلى تخليص العبارة العربية من الاغراق فى الأسجاع والزخارف . ونشبت بعد ذلك الثورة العرابية فكان فى صف العدل يقاوم ظلم

الخديو . ثم توظف فى الحكومة ، واستقال منها فدخل فى المحاماة وهى ميدان جديد محفوف بالمكاره فلم يقنع بما قنع به غيره بل أخذ فى الدرس ومقابلة الشرائع والتفقه فيها وعاد وهو فى سن الأربعين طالباً يتقدم للامتحان فى باريس لينال شهادة الحقوق .

فتأمل أيها الشاب فى هذه الهمة العظيمة التى تحفز شاباً أزهريا معمما إلى درس اللغة الفرنسية ثم القوانين الفرنسية والسفر إلى باريس للامتحان فى سن يشعر فيها غيره ببوادر الشيخوخة . أليس فى هذه الهمة ما يحفزك الى أن تنظر الى ما هو أرقى من مركزك الحاضر فتجهد جهدك لكى تبلغه ؟

ولكن سعداً كان شاباً حتى فى شيخوخته بل فى نهاية شيخوخته . فقد سمع عن عظمة المانيا ورقيها وهو فى سن الستين فشرع يتعلم الألمانية كأنه شاب . بل ماذا أقول ؟ كأنه صبى يتعلم حروف الهجاء وأخذ يحفظ عن ظهر قلبه الألفاظ ويحاول أن يلوى لسانه على مخارج النطق الألمانية . فهذا ما كان يعمله سعد لكى يرقى نفسه ويشعر بأنه بتقدمه فى السن يتقدم فى العلم وهذا ما يجب أن يفعله كل منا . يجب أن نبقى طلبة فى جامعة العالم نتعلم وندرس ولا ندخل القبر إلا وقد حوينا فى صدورنا أجمل ما فى هذه الدنيا من علم أو أدب كما يجب أن نطلب الرقى لا نرى مرتبة من مراتب الرفعة الا طمعنا فيها وأملنا فى بلوغها . ولكن سعداً لم يكن يخدم نفسه فقط بترقية نفسه

وتهذيبها وإنما كان يخدم أمته أيضا . وانضمامه إلى الثورة العرابية برهان على يقظة ضميره وهو بعد شاب لم يبلغ الثلاثين وقد ضحى بمركزه فى المحاماه وما كان يجنى منهـا من الأرباح الطائلة لـكى يخدم القضاء المصرى . فلما رأى الفرصة سانحة فى خدمة الحركة الوطنية أخذ يغذيها بماله وآرائه كما شهدت بذلك جريدة المؤيد . ورأى ميلا من الخديو عباس الى الاستبداد فقام وكافح . ثم جاءت سنة ١٩١٩ وتاريخ سعد بعد ذلك هو تاريخ الأمة المصرية بأجمعها . وهذه العجالة لا يتسع فيها المجال لذكر تاريخ أمة . والآن ماذا نحب فى سعد .

نحب فيه أنه كان مصريا صميما له وجه الفلاحين والفراعنة وكان يرقى نفسه يدأب فى الدرس ويتطور مع الزمن متمشيا مع روح العصر يدرس اللغة الفرنسية فى سن الأربعين واللغة الألمانية فى سن الستين . ثم كان مصريا يخلص الولاء لمصر فلم يقل مرة أننـا أمة عثمانية مثل الذين ضلوا بعد عرابى . وكان يضحى بكل شىء فى سبيل الوطن يرضى بالنفى والاهانة وهو ثابت على ولائه لا يتزعزع فسعد قوتنا جميعا ، يجب على كل شاب أن يقتدى به فى ترقية نفسه وفى خدمة وطنه .

فى الصحافة

كثير من الناس لم تقدر لهم الاقدار أن ينالوا تلك التربية المدرسية العالية التى تفتح الذهن للثقافة القديمة والحديثة ولكنهم بموالاة القراءة فى الصحف الراقية استطاعوا أن يبلغوا مكانة عالية فى الثقافة والتربية . وهذا هو السبب فى أن معظم الأدباء فى أوربا لم ينالوا شيئاً سوى القليل من التربية المدرسية ولكنهم نشأوا على أن يقرأوا من الصحف الراقية ما ابتعث فى نفوسهم ذوقا للادب والعلم وهداهم الى الكتب التى نزعت بهم الى نزعات الرقى المختلفة وحشدت رءوسهم بضروب الثقافة .

فالصحيفة الراقية تقف الآن الى جانب المدرسة والجامعة وتنافسهما فى نشر التعليم وابتعاث الاذواق والنزعات . وتأثير الصحيفة فى القارىء أكبر من تأثير المدرسة أو الجامعة لأنه يقرأها مختارا فهو يتقبل آراءها بقوة الايحاء الذى تبعثه اللفظة المطبوعة وبقوة التكرار الذى هو طبيعة الصحف الدورية . أما فى المدرسة والجامعة فان الاجبار يثير فى نفس المتعلم شيئاً من المقاومة والكراهية

حتى أننا قلما نقرأ كتابا من نوع ما كنا نقرأه فى أيام التعليم ولا ننظر بعد تركنا المدارس الى الكتب المدرسية الا بشىء من الكراهية هو أثر الشعور السابق بواجب الدرس. ولكن منا من يحب صحيفته ويتأنق فى اختيارها كما يتأنق فى اختيار الاصدقاء . وعلينا جميعا أن نقاطع الصحف التى تعمل للعداوة بين الناس وتدعو الى التعصب الدينى وتمتدح الجمود وتؤيد الاساطير .

وليس شك فى أن الصحف المصرية قد ارتقت هذه السنين الاخيرة وصار عندنا وزراء وعلماء لا يجدون من الغمط لأنفسهم ان يكتبوا فيها وصار للرأى العام عن طريق هذا الصحف قوة يخشاها ذوو النيات السيئة للبلاد .

ولكن صحفنا مع ذلك لم تبلغ حد الكمال فلا يزال بعضها يؤثر الطرق القديمة فى ملء انهرها بالكاتب المتطوع لأنه أرخص من الكاتب المأجور . ولكن قليلا من التجارب يثبت أن هذه الطريقة فى الاقتصاد هى أكثر إسرافا من دفع الأجور المناسبة لمن به كفاية من الكتاب .

وعلى ذلك يجب أن يختار القارىء من الصحف ارقاها حتى ترفعه وتسمو به وتحثه على الخير والبر فى العالم . وعليه أن يتأنق فى أن أكبر أنواع الجهل ليس جهل الفلسفة أو التاريخ بل جهل هذه الدنيا التى نعيش فيها. وتلك الصحيفة التى تبالى بتوديع مأمور أكثر

باعتصاب العمال فى اليابان تجنى على عقول قرائها جناية قد لا تغتفر .

إن شبيبة مصر يجب أن تكون راقية الذهن وواقفة على أحوال العالم واتجاهاته فى تطوره الحاضر حتى تعرف العالم ومكانة مصر منه ولا سبيل لها إلى ذلك سوى الصحافة. فاذا لم يخدم محررو الصحف القراء من هذه الناحية فانهم يهملون اهمالا فاضحاً فى أداء مهمتهم .

مصر مركز الثقافة العربية

أيها القارىء ...

تفكر وزارة التربية والتعليم الآن فى تأليف موسوعة كبيرة للمعارف العامة كما تفكر فى انشاء مجمع على يساير الحركة العلمية والأدبية أو يرود الطريق لها ويمهدها بانشاء الألفاظ التى يحتاج إليها الأديب أو العالم . ويضع لها معجماً .

ولمصر تقاليد فى إنشاء الموسوعات ليس قطر من الأقطار العربية ينافسها فيها . ففيها وضع ابن منظور معجمه بل موسوعته الكبرى « لسان العرب » وفيها وضع النويرى موسوعته الكبرى الأخرى « نهاية الأرب » .

وبديهى أن الموسوعة التى تنوى وزارة المعارف وضعها ستقوم فى الأكثر على الترجمة وستختلف عن طريقة ابن منظور والقلقشندى وغيرهما كما يختلف زماننا عن زمانهم . فقد عنوا هم باللغة والألفاظ عناية كبيرة ولم تكن غايتهم من هذه العناية الدقة بل الزخرفة .

ولكننا نحن فى حاجة اليوم إلى الدقة فى التعبير أكثر مما نحن فى حاجة إلى الزخرفة لأننا نعيش فى ثقافة علمية أو يجب أن نعيش كذلك . فحاجتنا إلى العبارة الواضحة الدقيقة أكبر من حاجتنا الى الزخارف والبهارج .

وقد كانت ثقافة العرب أدبية ولذلك عنوا بهذه الزخارف. أما الثقافة الحاضرة فى أوربا فتتجه نحو العلم . والحضارة الراهنة تنحو نحو الصناعة ولذلك نحن فى أشد الحاجة الى أن تكون عبارتنا واضحة دقيقة مختصرة . فاذا كانت المعاجم العربية تذكر مائة اسم للاسد فنحن فى معجمنا الجديد يجب أن نقنع بواحد ولكن يجب فى الوقت نفسه أن نزيد على ألفاظ هذا المعجب ٤٠٠٠ اسم خاص بالاجهزة والادوات الكهربائية مثلا .

وكذلك الحال فى الموسوعة يجب أن نعنى فيها بالثقافة الحديثة عناية كبيرة . ويجب أن نجعل غايتنا توجيه القراء الى ناحية العلم والتفكير فى المستقبل دون ناحية الأدب أو التفكير فى الماضى .

ونحن الآن فى مركز الزعامة للثقافة العربية من مراكش غرباً الى العراق شرقاً . ولنا من الاوربيين مزاحمون فى الثقافة فاذا لم نجعل ثقافتنا وفق العصر الحاضر بحيث يجد فيها القارىء العربى ما يعلمه ويهذبه ويسمو به الى آراء القرن العشرين فانه لا بد تاركنا الى اللغات الأوربية التى تغذوه بالآراء الحديثة .

ونحن نرى فى مصر وسوريا الآن طائفة من الشباب المتعلمين تركونا وتعلقوا باللغات الأوربية لانهم لم يجدوا فى ثقافتنا ما يغذو نفوسهم ولانهم وجدوا أن أدباءنا ما زالوا يبهرجون لهم فى اللفظ ويذكرون لهم أبطال الأدب فى بغداد والبصرة قبل ألف عام دون عناية بما يجرى الآن حولهم .

ولنا شباب آخرون تعلقوا بالثقافة العربية القديمة التى أصبحت لا تتفق والعصر الحاضر فصاروا ينظرون الى كل نزعة جديدة بعين المرتاب الذى يخشى منها كفراً جديداً أو تفرنجاً سخيفاً .

فلهؤلاء ولهؤلاء نحتاج الى موسوعة جديدة للمعارف ومعجم جديد للكلمات يكونان دستوراً للاديب يجذبان الينا أولئك الذين هجرونا الى الآداب الاوربية ويفتحان أعين أولئك الذين يتعلقون بالقديم للثقافة الحديثة .

وكلنا يرغب فى أن يتوحد العالم العربى فى اللغة العربية ولكننا لا نحب أن نضحى فى ذلك بشخصيتنا ولا نحب أن تكون الرابطة بيننا وبين سائر الاقطار العربية رابطة لغوية فقط . وإنما نرتبط بهذه الأقطار بثقافة حديثة قائمة على العلم والصناعة تربطنا جميعاً برباط الحضارة لا برباط البداوة ، فسبيل التعارف والتآلف بيننا يجب أن يكون قائماً على الآراء الحديثة فى الحكومة والزواج والاصلاح الاجتماعى والمخترعات والمكتشفات العلمية وبعبارة أخرى يجب أن نرتبط برباط المدنية الحديثة والثقافة الحديثة حتى تتحد عواطفنا الاجتماعية وغاياتنا الاصلاحية .

وهذه الغاية نبلغها اذا كانت مصر مركزاً للثقافة الحديثة تخرج منها المؤلفات ويجمع العالم العربى معجماً للالفاظ المفيدة فى العلوم والآداب يكون دستوراً للادباء كما أن الموسوعة تكون أساساً جديداً لنهضه تقوم على الابتكار والاختراع .

هزيمة الأدب السخيف

« نهضتنا نهضة أدبية بينما المدنية الحديثة علمية خالصة . فنحن نعيش فى واد والغربيون فى واد آخر لأننا لانأبه إلا للأدب ونهمل العلوم إهمالا فاضحا حتى أدى ذلك الى تقهقرنا وانحطاطنا . فان كل شىء يقوم الآن على قواعد العلم حتى الأدب لا يمكنه أن يستقيم إلا إذا كان له أساس من العلم. وذلك علة تقهقرنا فى الآداب التى قصرنا عليها اهتمامنا . فان أدباءنا الى الآن لا يطرقون الموضوعات الاجتماعية العلمية فيدرسون حالة فلاحنا دراسة علمية ويطلبون اصلاح حاله مثلا بل هم يؤلفون عن عصور الخلفاء واعجاز القرآن بينما نحن نجهل حقيقة الحركة العرابية مع أن التاريخ أصبح الآن علما بكل مافى كلمة علم من معان . والأدب أصبح علما يقوم على أساس من العلوم الكونية والطبيعية وعلى المشاهدات المحسوسة لاعلى الأوهام والخرافات .

« وهاهم الأوربيون يريدون أن يجعلوا من كل شىء علما ، فهذه الفلسفة ما تقدمت حديثا إلا حين انسلخت عن الآداب وأدخلت فى دائرة العلم لها مالغيرها من العلوم من معامل وتجارب ومقارنات وبراهين . وهذا علم النفس صار من زمن بعيد علماً له معامل كسائر

العلوم وبلغ من التقدم أنه صار أساس الأدب الحديث. فكل الروائيين والشعراء الآن علماء نفس بلا مبالغة بينما أدبنا ليس له أساس إلا علم الخرافات. فصارت الفلسفة علماً والأدب علما. كذلك قل فى السياسة والصحافة والتاريخ ولا نزال نحن هنا نعيش فى القرن الثانى للهجرة، نفسر الألفاظ وننشد المراثى والمدائح بينما الأوربيون يقلبون ظهر الأرض باختراعاتهم واكتشافاتهم فهم يحاربون الأمراض ويعملون على تقريب اليوم الذى يصبح المرء فيه فى مأمن منها بينما دأبنا الكلام الأجوف فى كل شىء نطالب به »

***

ولا تظن أيها القارىء أن ما قرأته هنا هو من قلمى وإن كنت قد اعتدت منى على مثل هذه اللهجة حتى السأم. ولكنها منقولة من كاتب يجب أن تحبه هو « حسن عارف ». ويجب أن تشجعه على المضى فى هذه النزعة الشريفة التى يراد منها الخير لبلادنا. فنحن منكوبون حقاً بالأدب السخيف أدب الألفاظ واللعب واللهو ودرس السلف كأننا أمة بدوية تعيش فى وسط الصحراء ولا تتصل بالحضارة الحديثة ولا يهمها الا قصة رويت قبل ألف سنة أو بيت شعر هو نكتة من نكات المغفلين.

وقد أثلجت صدرى هذه المقالة التى تدعونا الى هجران الأدب السخيف والنزوع الى العلم وقلبت الجريدة التى بها هذا المقال فرأيت

مقالا آخر عن المستر فورد خلاصته أنه ينوى أن يجدد مصانعه بحيث تخرج فى اليوم — أجل فى اليوم الواحد — ١٢٠٠٠ أتومبيل فكانت هذه المقالة الثانية برهانا على صدق المقالة الأولى وأكبر دليل على أن النزعة العلمية هى التى تعمل الرقى بينما النزعة الأدبية كما هى فى بلادنا لا تعمل إلا للانحطاط .

قبل سنة أو أكثر مات رجل انجليزى يدعى الأستاذ بيور ألف كتاباً غريباً يبحث عن فكرة الرقى والتقدم كيف نشأت ومتى نشأت . فانك إذا استقريت أحوال الأمم القديمة لا تجد لهذه الفكرة أثراً إذ هى حديثة جداً قد لا يزيد عمرها على مائتى سنة . والذى يبدو للباحث أن هذه الفكرة الشريفة التى تجعل الإنسان ينزع إلى تحسين نفسه وبلدته ووطنه لم تنشأ إلا من المخترعات العلمية . فان الانسان ابن العادة وهو قد رأى التبديل والتحسين فى الآلات فنزع به ذلك إلى التفكير فى التبديل والتحسين فى المؤسسات العمرانية . فالعلم هو أساس فكرة التقدم والاصلاح أما الأدب فما كان له هذا الفضل قط . ولهذا السبب أصبح أدباء أوربا علماء بل منهم من لا تعرف هل تسمه بالعلم أم الأدب . مثل ما يترلنك مثلا فانه يؤلف كتابا عن الارضة أو النحل وكيف تعيش وبعد ذلك يؤلف درامة عن المسيح .

الإيمان بالإنسان

لما أوشكت الثورة الفرنسية أن تقع وانشق الناس فريقين فريق كبير هو الأمة كلها تقريباً وفريق صغير هو الملك والنبلاء، كان بين هؤلاء النبلاء رجل يدعى المركيز دوكندورسيه وكان مع أنه نبيل نشأ فى بيت له تليد فى النسب والحسب قد انضم إلى الشعب فأخذ يعاون رجال الموسوعة فى نشر الأفكار الحرة ويعمل على تقويض الطبقة التى ينتسب هو إليها وصار ينفق ماله وجاهه وعلمه لكى ينبه الشعب إلى الثورة.

وجاءت الثورة فاختلط فيها الجنون بالعقل وقام الناس على النبلاء يقتلونهم وينهبون أموالهم وكان المركيز دوكوندوسيه من هؤلاء النبلاء له شارتهم وعليه سياؤهم فكان على الرغم من حبه للشعب وسعيه لانقاذه من الجهل والظلم معدوداً بينهم. فقتله الثائرون ونهبوا أمواله.

والآن قد تظن أيها القارىء أن هذا الرجل قد مات يائساً من تقدم الشعب ورقيه إذ أعطاه صحته وذكاءه وماله ولم يأخذ عوض ذلك شيئا ثم قتل على يديه، ولكن الواقع أنه عاش ومات مرتاح البال يؤنسه رجاء عظيم هو رجاء التقدم المطرد للنوع البشرى. فقد كتب قبل وفاته يقول:

« ولم تضع الطبيعة حدوداً لآمالنا وحسبنا أن نتخيل تقدم النوع البشرى بعد انطلاقه من السلاسل وهو يسير بقدم ثابتة على طريق الحق والفضيلة والسعادة فنجد من هذا المنظر ما يعزى الفيلسوف عن الأخطاء والجرائم والمظالم التى لا تزال تدنس وجه الأرض وتنزل بها المصائب » .

بمثل هذه العقيدة مات المركيز كما يموت الشهيد من أجل عقيدته الدينية بفرق واحد بينهما هو أن الأول يريد الجنة فى هذا العالم ويعمل لتحقيقها والثانى ينتظرها فى عالم آخر بعد الوفاة .

وليس شىء يخفف عنا آلامنا ويزكى فى أعيننا تلك الكوارث العديدة الحافل بها تاريخ الأمم سوى هذا الإيمان بأن العالم يتخلص بالتدريج من الأوهام والمظالم فيخرج من الإيمان بالأساطير إلى الإيمان بالعلم ومن الإستبداد إلى الدستور ومن المرض إلى الصحة ومن الضعف إلى القوة .

ثم مثال هذا النبيل الفرنسى يخفف عنا أيضاً ما نجده فى أيامنا من قوى تعمل للشر وتناهض مافينا من خير وبر . فان صيحة الاصلاح التى نصيح بها على ما فيها الآن من ضعف ووهن ستفوز فى النهاية لأن الرقى طبيعة البشر التى لا تحيد عنها . وليس البرهان على ذلك بعيداً عن الإثبات أو مستعصباً على الأفهام . فان نظرية التطور

نفسها هى نظرية الرقى ولذلك أطلق عليها اسم « نظرية النشوء والارتقاء » عندما نقلت إلى لغتنا . فاذا كان تاريخ ألف مليون من السنين يدل على الرقى فى الماضى فمن التعسف أن نحسب أنه انتهى وانقطع بوجودنا . فان عناصر هذا الرقى كامنة فى كل منا .

فالرقى كامن فى نفوسنا ينطق به تاريخنا الماضى وهذا هو ما يؤنس قلوبنا ويجعلنا نرضى بالتضحيات كلما سمعنا عن الاستبداد يبطش بالدستور، أو الظلم يجور على الحق، أو البغض ينتصر على الحب، أو الإثرة تفوز على الإيثار . وسنرى هذا الوطن كما نرى غيره من أوطان العالم حراً تعيش فيه الأمهات حرائر متعلمات ويعيش فيه الرجال علماء أيقاظاً يدرسون هذا العالم ويتمتعون به ويقصرون همومهم على إسعاده . ولولا هذا الإيمان بأن العالم يرتقى لما كان لحياتنا معنى أو مبرر للبقاء. وفى هذا الإيمان قوة تواتينا على الخير والبر . ثم فى ذلك كله شعور بالسعادة لأننا نؤدى عملا يرتاح إليه ضميرنا ويتفق وما فى صميم نفوسنا من نزعات ، وهذا بخلاف ما إذا عملنا للشر وناهضنا التقدم ، فاننا نشعر بأننا نكافح فى نفوسنا نوازع الرقى فيأخذ اليأس مكان الرجاء ونقيم حياتنا على مضض وعنت .

فكلنا يجب أن يكون هذا المركيز دو كوندورسيه يعمل لرقى الشعب ويؤمن بهذا الرقى حقيقة لاشك فيها ، أول ما نرى برهانه فى أنفسنا إذ لا يمكننا أن نفكر فى ترقية الناس مالم نرتق نحن أولا ، ولا عبرة بعد ذلك بالعوائق فان النهر العظيم قد ينحرف بعض الانحراف فى مجـــراه ولكنه بالغ مصبه بعد ذلك .

فى الحب

يقص الانجليز قصة يستخرجون منها عبرة الحب . هى أن أحدهم خرج فى يوم قد كثف ضبابه . والأشباح تتجسم فى الضباب حتى يهول منظرها على بعد . فرأى وهو سائر فى طريقه شبحاً كبيراً مخيفاً فارتاع منه . فلما اقترب منه قليلا تبين له أنه رجل . فلما واجهه عرف أنه أخوه . وهكذا نحن فى هذه الدنيا نحسب الناس غرباء فنخشاهم ونتوجس منهم ولكن الواقع أننا نحن وهم إخوان بل إخوة قد اتصلت دماؤنا بدمائهم . فإذا حسب المصرى مثلا وأحصى مقدار ما دخله من دماء الأمم الأجنبية فى نحو أربعين قرناً مضت لوجد أنه خليط من الدم الرومانى والعربى والانجليزى والفرنسى والسورى والصينى والتركى .

فنحن لسنا أبناء مصر فقط بل أبناء هذه الدنيا . وإذا كانت مصر وطننا الأصغر فالعالم هو وطننا الأكبر . ويجب لذلك أن يكون الحب والتعاون وسيلة التعارف والمعاملة بيننا وبين الناس سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين . وبهذه المناسبة نذكر كلمة للمشترع الانجليزى المعروف بنتام حيث يقول : « إن سبيل الراحة لنا هو أن نعمل لراحة الآخرين . وسبيل الراحة للآخرين إنما يكون بأن نبدو لهم كأننا نحبهم . وإنما نبدو لهم أننا نحبهم إذا أحببناهم بالفعل » .

وهذا كلام صريح وحقيقة تتضح لكل من اختير من الناس . فاننا لا يمكننا أن نرتاح إلى الدنيا والناس ما لم تكن علاقتنا بهم علاقة الحب . وراحتنا لاتقوم إلا براحتهم .

ولكن الوحش القديم لا يزال للأسف حياً فى الإنسان فما زلنا فى التنازع بدلا من أن نفكر فى التعاون ولايزال التنازع للآن خطة التعامل الرسمية بين الدول . وأفظع ضروب هذا التنازع هو الحرب : ولكن العالم كله يسير من التباغض الى التحاب ومن التنازع الى التعاون وينهزم الوحش فى الانسان رويداً رويداً . ففى العالم الآن محاكم تقف أمامها الدول وفى كل أمة متمدينة جمعيات تتعاون على البر وتنشر العلم والصحة وترفع الكرامة الانسانية .

ولاعبرة بعد ذلك بأن تبقى فى عصرنا أشياء من متخلفات الماضى كالاستعمار والسجون والرق الاقتصادى فان كل هذا سيزول لأن الحب سيتغلب على البغض .

وسنرى أو يرى أولادنا يوماً ما، استحالة السجون الى مدارس ومستشفيات وارتقاء العامل الى حيث يملك كل ثمرات عمله بدون أن يكون فوقه واحد يعيش من كده ولايعمل شيئاً لفائدة الناس .

ولكن الحب للأفراد فيما بينهم ليس فى ذاته صدقة يتصدق بها الواحد على الآخر بل خطة تعود بالراحة والسعادة على من يمارسه ، فهو يستحق الثمن الذى ندفعه بما نكلف أنفسنا من معاونة الناس وإبداء الحب لهم، بخدمتهم الخدمة النزيهة التى تدل على أن ما نظهره لهم هو طبق ما نبطنه .

عندما تزيد حياتنا حيوية

هناك أوقات نحس فيها باليأس من العدل أو السعادة، أو بتفاهة العيش وحقارة الهدف، أو بفقد الايمان من الوجود، أو بالاقتناع بأن طبيعة الانسان سيئة وأن الشر أصيل فى دنيانا.

فى مثل هذه الأحوال نحس بخمود العقل وجمود النفس. وفى مثل هذه الأحوال تغشانا الأفكار السوداء. العدم خير من الوجود والموت خير من الحياة، وليست هناك منفعة من مكافحة الظلم، أو الدعوة إلى النور، لأن النهاية لكل شىء هى الفناء.

وحياتنا عندئذ تحيا على الحد الأدنى من مستواها.

هى عندئذ حياة تنقصها الحيوية: حياة راكدة مستسلمة.

ولكن هناك أوقاتاً أخرى حين نحيا على المستوى العالى. فتزيد حيويتنا.

أذكر ذلك اليوم السعيد فى حياتنا حين سمعنا عن خلع فاروق وطرده من وطننا. فأننا لم نكن نحيا فى يوم ٢٦ يولية فقط. لأن حياتنا كبرت عندئذ وامتدت إلى ١٦٠ سنة منذ استولى الدخاخنى، محمد على، على بلادنا بالغدر والمكر إلى يوم أقلعت الباخرة بفاروق من الأسكندرية.

فى هذا اليوم زادت حياتنا حيوية . وزاد وجداننا بتاريخنا . وصار الطعام أسوغ والماء أمرأ على ألسنتنا . وأحسسنا كأن حياتنا التى كانت نثرا متواضعاً قد صارت قصيدة عالية . وكأن درجة الحرارة فيها قد زادت .

ولكل منا أيامه ، هذه الأيام السعيدة ، التى يزيد فيها إحساسه العالى أو وجدانه العميق .

لقد عرفت أن الاحساس ، مثل العقل ، يمكن أن يكون بليدا أو ذكياً . وإنى لأذكر هذا الاحساس الذكى فى رجل ، ما زلت أجهله ، كان معى فى ١٩٤٦ فى محبس قسم الأزبكية أنتظر التحقيق فى تهمة قلب نظام الحكم . وكنت قد دخلت المرحاض وخرجت منه وإذا بحذائى قد غمس فى القذر ، ورآنى هذا الذى أجهله مربوكاً مخبولا . فتسلل من خلفى وأخذ الحذاء وغسله ورده إلى مكانه .

وعندما اكتشفت هذه الشهامة العجيبة . شرعت أبحث عنه ، فعرفت أنه خرج قبل دقائق من المحبس .

وعندما أذكر هذه الحادثة ينتابنى احساس الحب الرهيب لهؤلاء الملايين من أمثاله الذين تمتلىء نفوسهم بالذكاء . وعندئذ يزيد وجدانى. أى أنى أزداد وجودا فى هذه الدنيا فأتعقل أكثر. وأحس أكثر . ويخزنى ضميرى إلى اليقظة كأنى كنت نائماً فصحوت . وكأن حياتى كانت خامدة فانتبهت .

أليست هناك لحظات وأوقات تتأكد فيها حياتنا فنزداد حيوية ؟

أليست هناك لحظات وأوقات نعرف فيها أن الطيبة أصيلة فى الطبيعة ؟

أليس هناك كوب الماء بعد العطش والشؤبوب البارد فى أيام الصيف ...

قد تقول أن هذه أشياء صغيرة لا تزيد على لذة الجسم .

وهذا صحيح . ولكن من منا لا يبتئس ويغتم إذا حرمها ولو لوقت قصير ؟

والبؤس والغم هما نقص فى حيوية حياتنا ، كما أن الفرح والبهجة هما زيادة فى الحيوية . ومع ذلك ليس هناك شك فى أن لذات العقل والنفس تعلو على لذات الجسم وشهواته .

لما زاد الفيضان هذا العام قصدت إلى روض الفرج فى الصباح وقعدت أتأمل النيل فى سعته وأفكر فى تاريخه الجيولوجى وتدفقه من بحيرة فكتوريا إلى مكانى ، من علو أربعة آلاف متر . وأحسست عندئذ أنى قد زدت وجوداً . وابتعدت حدودى واتسعت آفاق .

أن هذه المياه قد آنست التماسيح وأفراس النهر والكركدن وهى تحمل إلينا تراب أثيوبيا . ثم تنساح فوق أرضنا وتعمم الخير. وفى مثل هذا التأمل والتفكير أحس اغتباطا وانشراحا وأذكر

قول رامبو : « العالم طيب . . أنى أبارك على الحياة » .

أجل . أن فى هذا العالم من المشاهد والأحداث والأشخاص ما يكاد يجعل البليد ذكيا ويوقظ النائم ويجعلنا « أوجد » مما كناه أى أكثر وجوداً .

أنظر إلى أم ترضع طفلها . هل هناك أروع فى الجمال وأحب إلى القلب من هذا المشهد الذى تتبلور فيه الحياة بكل ما تحمل من حب وشرف ومسئولية وتضحية ؟ ألسنا نحس الطيبة والإنسانية عندما نرى الأم الحانية على طفلها ؟

وقفت من مدة قريبة إلى نخلة أتأمل جمالها وأتحدث إليها وهى منتصبة مكللة بالسعف قد تهدلت منها شماريخ البلح . وقد برزت على سيقانها عراجين غليظة شظفة كأنها أقدام الفلاحين التى تشققت بكد الفلاحة . أليس كلاهما يعمل لخدمتنا وتغذيتنا ؟

ودرت حول هذه النخلة كى أملأ نفسى من جمالها . ولشد ما تألمت عندما وجدت سعفة منها متدلية مكسورة .

كانت بيتاً من الشعر مكسوراً ...

وكثير من المواقف يحيلنى، على الرغم منى ، إلى شاعر فيلسوف.

فنى النهار يغمرنى ضوء الشمس وتشغلنى المدينة باهتمامات مدنية وتبسط لى الصحيفة أخبار الساسة الصغار والكبار . ولكننى فى الليل عندما يعم الظلام أجدنى أتأمل السماء فأرى النجوم

والكواكب . فيزداد وجودي وتتسع حدودي .

وعندئذ أنا , أوجد , مما كنت في النهار .

وهذا هو احساسي أيضاً عندما أبكر في الفجر واخترق هذا الكون من خلال الظلام الأبيض الذي يسبق الشمس .

قبل سنتين وقفت أمام الدينصور متحف في باريس.فأحسست أني فيلسوف وجعلت أدور حوله . وهذا الدينصور هو زاحفة تعلو على الفيل جرما وقد انقرضت منذ مائه مليون سنة . وهأنذا لا أبلغ في الجرم أصغر عظمة من عظامه أمتاز عليه بهذا العقل الفلسفي الذي أخرج هيكله من الطين والتراب والصخر وجعله منظراً لأبناء القرن العشرين يتعلمون من تاريخه ويفطنون منه إلى معاني التطور والارتقاء .

كهنة من طراز جديد

عندما أفكر فى القيم الاجتماعية العصرية للكلمات المحورية التي يسترشد بها المجتمع الأوربى أو فى مجتمعنا فى معانى الفضيلة والصلاح والشرف أجد أنها ليست من كلمات الأديان إذ لم ترد قط فى كتاب دينى. وإنما وردت فى كتب الأدباء أو الفلاسفة الذين فكروا فى ارتقاء البشر فى أوساط جديدة تطلبت إحساسات جديدة.

اعتبر كلمة المروءة أجمل كلمة فى اللغة العربية ، فانها مع ما تحمل من المعانى البشرية السامية لم ترد قط فى أحد الكتب المقدسة ، وإنما هى من وضع الأدباء بل ماذا أقول ؟ أنها من وضع العامة وهى تروح وتغدو على ألسنة الفلاحين والعمال فتسمو بهم إلى مراتب من الفهم والبر ما كانوا ليصلوا إليها لولاها .

أو أعتبر كلمات الحرية والإخاء والمساواة . فانى لم أجد واحدة من هذه الكلمات الاجتماعية قد وردت فى الكتب المقدسة وإنما هى من مخترعات الأدباء الفرنسيين .

أو اعتبر كلمة الشرف التى لم تذكر فى الكتب المقدسة .

أو أعتبر هذه الكلمات التى يحى بها مجتمعنا ، نظاما وفكرا ، وهى : العائلة ، والمجتمع ، والتطور ، والديمقراطية ، والاشتراكية ،

كلمات ملهمة مليئة بالمعانى التى تزيد الفهم وتنظم الفكر ، أليست جميعها من مبتكرات الأدباء والفلاسفة ؟ .

ولم يذكر الضمير ولم يذكر الوجدان فى الكتب المقدسة ؟

لقد عرف العالم المتمدن كتاباً أحبوا الانسان واغطت قلوبهم وتحدثوا فيما بينهم وخطبوا وكتبوا عن الحرية والحب والمستقبل ، فكانوا كهنة من طراز جديد يضيئون المصابيح ويخططون السعادة والشرف .

وإنى لأعرف من هؤلاء الكهنة فى عصرنا أندريه جيد ، ومارسيل بروست ، وبول سارتر . وبرناردشو . ولكنى أعرف أيضاً صرخات فولتير ، وأشعار بيرون وسطوات الأفكار الحرة على التقاليد من داروين وفرويد ونيتشه .

أعرف هذه الأسماء ، أسماء القديسين الجدد ، وأحس أنها لا تزال تكافح من أجل الشرف والفهم والإنسانية .

ولذلك يجب أن يتسع معنى الدين عندنا ويدخل فيه الأدباء والفلاسفة ويكونوا من قديسيه .

وهؤلاء الأدباء والفلاسفة الذين أعطونا المعانى ورسموا لنا الأهداف الجديدة لم ينقضوا الفضائل القديمة التى دعت إليها الأديان ولكنهم أكملوها . إذ هم عاشوا فى عصر آخر يحتاج إلى فضائل أخرى .

أحسوا التطور فى المجتمع فدعوا إلى تطور فى الفضائل والقيم . ولما رأوا أن القيم الدينية إلى ورثناها قبل ألفى سنة هى قيم أخروية تدعو إلى صلاح الفرد بالصوم والصلاة والتسليم بالعقائد ونشدانه الخلاص الشخصى عمدوا إلى إيجاد قيم أخرى دنيوية اجتماعية غايتها تكوين المجتمع الصالح . ومن هنا هذه الكلمات الاجتماعية الجديدة التى ذكرناها والتى لم ترد قط فى كتاب مقدس . فإنها اجتماعية إنسانية من حيث أنه يراد بها خدمة المجتمع وترقية البشر فى عصر جديد غير العصور القديمة التى نشأت فيها الأديان .

لقد احتاجت العصور القديمة إلى الإحسان والبر بالفقراء . ولكن عصرنا قد استحدث ، على أقلام الأدباء والفلاسفة ، قيما جديدة تستنكر الإحسان والبر وتقول بالديمقراطية التى تجعل الفقراء أغنياء بما تقرر لهم من حق العمل . وعلى هذا الأساس نحن نعاقب فى مصر من يمد يده للسؤال وإن لم نكن قد استكملنا بعد النظم الديمقراطية والضمانات الاجتماعية التى تغنى عنه .

إنهم، هؤلاء الأدباء والفلاسفة ، يمارسون القصص والشعر . وهم ينشدون القداسة فى المجتمع ، فى كل فرد ، وليس فى معبد ، وليس لشخص مفرد ، وليس لأمة مفردة .

اربطوا شبابنا بالحب

قرأت فى الشهرين الماضيين كتابين لعظيمين من عظماء الأدب فى أوروبا ، أحدهما لمكسيم جوركى . والآخر لجان جاك روسو . وكلاهما اعترافات .

نشأ مكسيم جوركى فى بيئة عائلية تكفى لتخريج ألف مجرم . فقد مات أبوه وهو طفل . وعرف بدلا منه جدا كان غاية فى الخسة إذ كان يستجدى وهو ليس فى حاجة إلى ذلك . وكان ينصب ويغش . وكان يقسو على زوجته وعلى غيرها . وعرف أعماماً كانوا وحوشاً . ثم تشرد بعد ذلك . وبلع ريق الجوع أياماً وشهوراً . وعاين التبذل الإنسانى فى جميع مساوئه .

ولكن شيئاً واحداً كان يسنده فى كل هذه الحياة التى كان يعانيها ولا يحياها . هو هذه الجدة التى ربته على الحنان والرقة والذوق والشرف .

وهو يذكر أنه ، وهو بعد صبى ، كان يستمع اليها وهى تقص عليه قصص القديسين . وكانت مؤمنة تسلم بكثير من الخرافات . فكان مما قالته أن جثمان القديس فى القبر لا يبلى بل يبقى سليما مهما توالت عليه السنون .

فقال لها من فوره : « وهل يبقى جثمانك ياجدتى سليما فى القبر لايبلى ؟ » .

وضحكت الجدة . وسعد الطفل . وبقى يذكر هذه القصة إلى أن تجاوز السبعين من العمر . ذكرى الحب والحنان والرقة التى كان يجدها فى جدته ، هذه الجدة التى كانت تتسـول لفقرها كى تطعم حفيدها .

لقد ارتبط مكسيم جوركى بالإنسانية . وصار رجلا طيباً لأنه عرف جدة طيبة . وصار بعد ذلك يختلط بالمجتمع ويوليـه الاحساسات الجميلة التى كان يوليها جدته . فأحب المجتمع .

وكذلك الشأن فى جان جاك روسو . فقد نشأ فى إهمال وإن لم يجد قسـوة وتشرد وعمل خادماً . وأوشك على السقوط حتى ساوم على مذهبه الدينى وباعه كى يعيش . ولـكنه عرف إمرأة طيبة أحبته بكل ما فيها من عقل وقلب . وكانت جميلة . فبقى طيلة حياته يسعد بالجمال ، جمـال المرأة ، وجمال الطبيعة فى الزهر والشفق ، وجمال الأخلاق فى المروءة والشرف وجمال الحب .

لقد ارتبط كل من جوركى وروسو بالمجتمع لأن الحب دخل فى قلبيهما فى الصبا والشباب . وبقى هذا الرباط يشدهما إلى هذه الدنيا . فأحبا الناس ونشدكل منهما فى الإنسان رفعة وشرفاً ومروءة.

ولقد وقع لـكل منهما من الظروف ما عزله عن المجتمع.ولذلك

تشرد كلاهما . فرحل روسو شريداً ، وأحيانا طريداً ،من سويسرا إلى فرنسا إلى انجلترا .

ورحل جوركى شريداً ، وطريداً أيضاً ، إلى نحو عشرين قطراً فى أوربا وأمريكا .

ولكن هذه العزلة لم تنته بواحد منهما إلى الإجرام أو الجنون. وإنما انتهت بمؤلفات يغمرها الحب كما تلهج معانيها بالمروءة وتلفظ موضوعاتها بالشرف .

ما الذى ينقص شبابنا ؟

ما الذى يهوى بهم إلى الجنون أو يحملهم على الإجرام أو الانتحار؟

إن الشاب الذى يرتبط بالدنيا بهموم الحب أو اهتمامات الذهن لا يمكن أن يفكر فى جريمة ولا يمكن أن يلجأ إلى الجنون أو الانتحار.

وثق أيها القارىء أننا حين نجن إنما نلجأ إلى الجنون لأننا نجد فيه ميناء السلام كما لو كنا غرقى نبحث عما ينقلنا من خطر الأعماق وهوج الأمواج .

إن الذى يحمل شبابنا على ذلك هو أنهم لم يجدوا جدة طيبة . ولم يختبروا سعادة الحب . ولم يسعدوا باهتمامات بشرية سامية ، ولم يمارسوا كفاحاً من أجل الخير والمروءة .

أى لم يحبوا .

وحياتنا تعود رخيصة تافهة حين لا نحب ولا نهتم . أى حين لا نحب المرأة ، أماً كانت أم زوجة ، ولا نحب المجد ولا نبالى الوطن ولا نكافح الاستعمار ولا نصطدم بالاستبداد .

اجعلوا حياة الشباب فى مصر غالية . وافسحوا لهم ميادين الحب البشرى حتى يرتبطوا بالمجتمع . لأن الشاب الذى لا يجد فى المجتمع ما يحبه أو يرتبط به هو الشاب المجرم الذى لا يبالى أن يقتل إنساناً من أجل مائة جنيه أو ألف جنيه .

هو شاب رخيص يجد الدنيا رخيصة فلا يبالى أن يتركها بجريمة أو جنون أو انتحار .

إجعلوا هذا الشاب غالياً ثميناً له ما يحب وما يرتبط به فى مجتمعنا . ويجب أن يكون الموضوع الأول لحبه هو المرأة .

ثلاث تهم توجه إلى سقراط

كان سقراط فيلسوفا يعيش فى أثينا قبل نحو ٢٤٠٠ سنة . وكان ، مثل جميع الفلاسفة المفكرين ، يقاق الأثينيين لأنه كان يدعو إلى سيادة العقل على العقيدة . وقد قدم للمحاكمة ووجهت إليه هذه التهم الثلاث التالية :

الأولى : أنه ينكر وجود الآلهة

والثانية : أنه قد اخترع آلهة أخرى

والثالثة : أنه قد أفسد الشبان

وعندما نتأمل هذه التهم الثلاث نجد أنها مترابطة بحيث تعد تهمة واحدة لأن سقراط عندما أنكر آلهة الأغريق اضطر بالطبع إلى أن يعين غيرها يقوم مقامها . وهو فى هذا الكفر كان يفسد الشبان الذين يؤمنون بايمانه الجديد .

والواقع أنه كانت هناك تهمة أصيلة عميقة توجه إلى سقراط هى أنه كان يقول بأنه يجب أن نحيا وفقاً لمنطق العقل بما نجمعه من اختبارات ومعارف . ولا نؤمن بما نوارثناه من أقوال الآلهة .

لقد وضع المعارف فوق العقائد . وكان فى هذا أعظم الخطر

على نفسه . وأعظم الألم لأفراد الشعب الذين كانوا يعتقدون ويرتاحون إلى عقائدهم دون أن يتكبدوا عناء التعلم والبحث عن المعارف .

ذلك لأن العقيدة الموروثة تحدث عاطفة من السرور أو الألم أو الخوف أو الاشمئزاز أو البغض أو الحب . فاذا صدمت أحدا فى عقيدته . فأنت فى الواقع تصدمه فى عاطفته وتؤلمه .

ومن هنا كراهة الشعب لسقراط ، إذ هو كان يجرح الناس فى عقائدهم أى عواطفهم .

هل يمكن أن نحيا بالعقل وحده وبما نجمعه من معارف نرتبها ونستخلص منها منطقا ومبادىء وأسلوبا للعيش ؟

لقد عرف سقراط أن الذى يحاكم ويدان ليس سقراط فقط بل هو العقل أيضا . ولذلك وقف يدافع فى المحكمة عن العقل ، ويقول أننا نستطيع أن نحيا بالعقل وحده .

وحين نقرأ أفلاطون فى عرض هذه المحاكمة ، نجد كلمات تتردد . هى : يجب أن نمتحن عيشنا . يجب أن نجمع المعارف . غاية المعارف للانسان هى أن يحيا الحياة الطيبة . وأن مايمتحن الحياة ومايجمع المعارف هو العقل . ولذلك يجب أن يكون للعقل السيادة فى جميع تصرفاتنا .

كان سـقراط يحاكم أمام محلفين يبلغ عددهم خمسمائة من الأثينيين . وكان هؤلاء يستمعون إليه كما لو كانوا يستمعون إلى محاضرة أستاذ . وكان هو يحس أنه فى هذا المقام ، وأنه أيضا يجب أن يعين لهم المبادىء والأهداف فى حياته وأقواله .

وكان هؤلاء الخمسمائة يعرفونه . وكان « البلاغ » الذى قدم ضده يحتوى ، كما قلنا ، ثلاث تهم ، الكفر بالآلهة واختراع آلهة جديدة وإفساد الشبان . وكان مقدموه ثلاثة أحدهم دباغ . والثانى شاعر . والثالث خطيب .

وقد نقل إلينا أفلاطون الكثير من دفاعه عن أقواله وعن أسلوب حياته . وكان مما جاء فيه قوله :

« إن الله أمرنى بأن أؤدى رسالة الفيلسوف فأنقب عن سريرتى وعن سرائر الآخرين » .

وتوجه إليه التهمة الأولى بأنه ملحد .

فيجيب بأن سيرة حياته كانت سيرة المختار بالقوة الالهيـة ، وأن الله قد كلفه أن يستقصى فى سؤال أولئك الراضين عن أنفسهم من الكبار وأيضا أولئك المرتبكين من الشباب . وأنه لن يكف عن هذا الاستقصاء حتى ولو أفرج عنه . لأن الله قد اختار له أن يكون الذبابة التى تلسع الجواد وتقلقه فلا ينام . وهو نفسه هذه الذبابة

إذ يفتأ يقلق الدولة الأثينيـة . ثم يروى عنـه أفلاطون قوله للمحلفين .

« إذا أمرتم بقتلى فإنه لن يكون فى ميسوركم أن تجدوا من يخلفنى ، لأنى ، كما قلت لـكم ذبابة ألصقنى الله بجسم الدولة . وهذه الدولة ، هى جواد أصيل ، ولـكنه بليد بسبب ضخامته ، ويحتاج لذلك إلى ما ينخسه حتى ينهض ويحيا ، وأنا هذه الذبابة لا أفتأ أنبهكم وأغريكم وأعنفكم » .

وفى نهاية دفاعه يرجو المحلفين أن يعنوا بتربية أبنائه كما كان يعنى هو بتربية الاثينيين . بل أنه لينصح لهم بأن يعاقبوهم ويقول :

« إنى لأطلب منكم أيها الأصدقاء أن تعاقبوا أبنائى وأن تقلقوهم . كما أقلقتكم أنا . إذا كانوا يعنون بالثراء أو بأى شىء آخر أكثر مما يعنون بالفضيلة ، أو إذا كانوا يزعمون أن لهم قيمة حين لا تكون لهم قيمة .. لقد آنت ساعة الفراق بينى وبينكم . كل منا إلى طريقه . أنا للموت وأنتم للحياة . والله وحده هو الذى يعلم أى الطريقين أفضل » .

ما هى عبرة هذه الحياة ، بل ما هى عبرة هذه القيم الخالدة التى أعدم من أجلها سقراط ؟ .

ما هى عبرتها فى مجتمعنا وحكومتنا ومعيشتنا وشخصية كل فرد منا ؟ .

هي أن نعتمد على المعـارف فى حياتنا حتى نؤلف يوما ما المجتمع العلمى ونحيا الحياة العلمية . لأن العلم معارف يجمعها العقل .

وهي أن نحترم حرية الضمير أى أن لـكل منا الحق فى أن يفكر كما يشاء ، وأن يتخذ أسلوب الحياة الذى يريد .

وهي أن نحترم حرية الرأى . ومعنى هذه الحرية أن ننشر هذا الرأى و نعلنه للناس . إذ ما قيمة الرأى إذا حبسناه فى قلوبنا ؟ .

إن سقراط لم يقتل من أجل الأثينيين فقط . بل قتل من أجل البشر جميعا .

أى من أجلنا نحن أيضا لأنه أصر على أن لنا الحق فى أن نحيا وفق عقولنا وليس وفق تقاليدنا وعقائدنا الموروثة .

جو الحب

المصرى الغريب الذى يزور فرنسا لأول مرة يجد أن القبلة التى تعد فى بلادنا شيئاً خاصاً حميا لا يجوز لعامة الناس أن يروه، هذه القبلة هى شىء مألوف . وهى مع ذلك ليست قبلة الأبوة أو البنوة وإنما هى قبلة الغرام بين الشباب من الجنسين ، فإذا اتخذت ناحية فى القهوة رأيت شابا وفتاة ذراع أولهما على عاتق الثانية وذراع الثانية حول خصر الأول ، وهما يحتسيان القهوة أو البيرة ، وبين فترة وأخرى تلتقى شفتا كل منهما بشفتى الآخر فى قبلة حارة تدوم نحو دقيقة أو دقيقتين أو أكثر ، وليس فى المقهى واحد يسدد نظره اليهما فى استنكار .

وكذلك فى الشارع يقف اثنان شاب وفتاة ، ثم يطبع كل منهما على شفتى الآخر قبلة تدوم بضع دقائق . وجمهور المارة لا يلتفت إليهما ، وقد أخذت القبلة مكان المصافحة عند الشباب فى كثير من الظروف .

وجو الحب يغمر فرنسا وقد أصبحت القبلة ، رمز الحب ، من الشعائر الاجتماعية كما هى من العواطف البدائية . فلا يأوى أب إلى فراشه ، حتى يقبل أفراد العائلة ويقبلوه ، وعندما يغضب

الأب على ابنه ويرفض القبلة فإن هذا الرفض يعد أقسى عقوبة تنزل بالابن ، وقل من يفعل ذلك حتى بعد الغضب .

ومع أن الفرنسيين يكبرون من شأن المال ، ويدخرون كثيراً .. ويبالغون فى الادخار إلى حد الشح ، فإنهم حين يتزوجون لا ينسون أن يجعلوا الحب أساس الزواج . . فالحب فى المحل الأول والمال فى المحل الثانى ، وقد عرفت فى انجلترا فتيات حوالى الخامسة والعشرين يتزوجن رجالا فوق الأربعين ولكن لم أجد مثل هذا الزواج فى فرنسا التى تؤمن بالحب .

وليس فى فرنسا كلها مقهى يسوده هذا الجو المتزمت الذى نسميه الوقار ، فأينما دخلت إحد المقاهى وأينما قعدت ألفيت عن يمينك أو يسارك أو كليهما ، شباباً وفتيات فى حمى الحب ، ويزيد هذه الحمى حرارة كئوس من النبيذ المخفف أو الخمر المركزة ، وجميع القهوات فى فرنسا تبيع الخمر كما تبيع اللبن أيضاً .

ويبدو لى كأن المجتمع الفرنسى يشجع شبابه على الحب ، ويجد فى هذا التشجيع ما يسدد الشبان نحو الاستقامة الجنسية أى الحياة الجنسية السوية . فان الشاب الذى يلتقى بحبيبته كل يوم ، ويجد فى عناقها وقبلاتها على القهوة أو فى الشارع ما يشبع بعض غريزته ، هذا الشاب لا يمكن أن يقع فى شذوذ جنسى — لأن الصورة التى ملأت خياله هى صورة المرأة . وكذلك الشأن فى الفتاة . ومن هنا

أيضاً شيوع الرقص فى كل مكان ، فإنه أيضاً يؤدى هذه المهمة مهمة التوجيه السليم للغريزة الجنسية .

أننا نحن فى مصر ، حين نحرم الشبان الاختلاط بالفتيات ، وحين نحرم الرقص أو نصمه بوصمة التهتك ، إنما نوجه الغريزة الجنسية نحو أهداف أخرى ، هى أهداف شاذة ، غير الوجهة التى خلقت لها لأن الهدف الطبيعى للشاب هو الفتاة وهدف الفتاة هو الشاب . والفصل بينهما هو توجيه لكل منهما إلى الشذوذ .

لقد ذكر جوليان هكسلى حادثاً عجيباً هو أنه كان واقفاً أمام إحدى إناث الطير وكانت هذه الأنثى فى حرارة الاغتلام فلما لم تجد الذكر من نوعها من الطير جعلت تزيف وتتبختر له أى لجوليان هكسلى كأنه قد قام عندها مقام الذكر . وربما أكون هنا قد نسيت وجعلت الأنثى مكان الذكر . ولكن العبرة واضحة وهى أن الغريزة الجنسية إذا لم تجد هدفها السوى رضيت بالهدف الزائف ، الشاذ .

ولذلك يقل الانحراف الجنسى فى أوربا حيث يختلط الجنسان وحيث تبقى الغريزة سليمة ، أما فى أمم الشرق فان هذه الغريزة تنحرف كثيراً بحيث يحب الذكر الذكر والأنثى الأنثى .

بل لقد ارتفع هذا الانحراف إلى مقام الأدب فصارت له أبيات من الشعر لا يشمئز بعض أدبائنا من إطرائها والتنويه بمعانيها .

وشباب أوربا ، من الجنسين . سعيد بهذا الاختلاط ولست أعنى بهذا أن العادة السرية والشذوذ مجهولان فى أوربا ولكنى أعنى أنهما دون ما نعرف فى أمم الشرق بسبب الانفصال بين الجنسين فإن لكل حالة شاذة فى أوربا نجد نحو مائة حالة فى هذه الأمم الشرقية بل أكثر .

واقد داعب كل من أندريه جيد وبول سارتر فى فرنسا الشهوة الشاذة ولقى كلاهما الاستنكار . كما أن أوسكار وايلد مارسها وعوقب بالحبس سنتين مع أن ضحيته كان راشداً . ولو أن جريمة أوسكار وايلد هذه كانت قد وقعت فى مصر لما كان قد عوقب عليها . ولكن القانون الانجليزى يعاقب على ارتكاب هذه الجريمة حتى ولو وقعت بين راشدين .

أما فى مصر فإننا نشترى ديوان ابن الرومى وأبى نواس ونقرأ فيهما أكثر من مائة صفحة فى وصف هذا القذر ولا نبالى . ولا تبالى الحكومة . مع أن لها « بوليس آداب » يلقى القبض على شاب وفتاة إذا وجدا متلبسين بالقبلة .

فلنعلم شبابنا الحب

أن حياتنا الزوجية الشرقية قد جعلت كثيراً من رموز الحب أشياء مقفلة أو محرمة . وأنا أبعد الناس عن أن أستبيح أو ارتخص هذا الحياء الجميل الذى يجب أن يسود الحياة الجنسية إذ هو يزيدها رقة وحناناً وجمالا ولكن هذا التزمت الذى بعثنا على ايجاد بوليس للتفتيش على القبلة ، هذا التزمت يجب أن يزول ويجب أن ينمحى ويجب أن نعلم شبابنا كيف يحبون على أساليب المتمدنين .

أننا نعلم صبياننا كيف يأكلون فى غير التهام وكيف يمضغون فى غير تشدق وكيف يشربون فى غير اصطفاق ، وصرنا نأكل علناً فى غير حياء مع أن الفلاحين لا يزالون يستحيون من الأكل علنا

وكذلك يجب أن نعلم شبابنا كيف يحبون فى رقة ولطف ، يقبلون فى جمال وظرف ، بحيث لا يخجلون من ممارسة التقبيل أمام جمهور الشعب ، وفى هذا تمرين لهم على أن يحب الشاب الفتاة كما تحب الفتاة الشاب بلا شذوذ .

والعجب أننا فى مصر نؤلف القصص الغرامية ونقرأها وكلها قبلات وعناق وحب وغرام ثم يثب الكتاب الذين يؤلفون هذه القصص نفسها فيسهبون فى إطراء الأخلاق والعادات والتقاليد الشرقية

ولا يبعثهم على هذا سوى النفاق والجبن لأن الفن لا يمكن أن يختلف من الحياة . فإذا كانت القبلة محرمة فى الحياة فيجب أن تحرم فى القصة . وكثيرا ما كنت أرى الفتى والفتاة يقبل أحدهما الآخر فى سعادة فى إحدى قهوات باريس . أما فى مصر فإننا نجد مناظر مؤسفة كمنظر ذلك الشاب يتعقب فتاة فى أحد الشوارع بالقاهرة وهو خائف يتلفت لئلا يلقى القبض عليه بوليس الآداب .

إن أجمل سنى العمر هى سنى الشباب وأجمل لحظات الشباب هى لحظات الحب . وحرام أن نحرم شبابنا هذه اللحظات السعيدة . وإجرام أن نحرمهم هذه التربية الذاتية للزواج بدعوى العادات والتقاليد كأننا ننسى أن هذه العادات والتقاليد هى التى جعلت ابن الرومى يرصد أكثر من مائة صفحة من ديوانه للأبيات البرازية أى فى وصف البراز واللواط . والتى جعلت أبا نواس يذيب عبقريته فى شناعات من الأبيات التى تتعفن وتلتمع بلمعة العفن .

وليست حياة الشبان أو الفتيات مع ذلك فاسقة كما نتوهم . بل هى أطهر مما نعتقد . وإذا كان هناك معنى للحب الطاهر فإن هذا المعنى أكثر شيوعاً فى فرنسا منه فى مصر . ذلك لأن المركز العالى الذى تحتله المرأة فى المجتمع الفرنسى يجعل الشبان يتقدمون إليها بتقادم الحب فى تقدير واحترام. لأن ما يدنس الحب هو أن ينخفض

مركز المرأة فيعاملها الشاب كما لو كانت خرقة يمسح بها شهواته أو لعبة يقضى بها فراغه .

وحين ينتهى الحب بالزواج ، كما يحدث فى أغلب الحالات ، تعود ذكريات الزوجين إلى تلك الأيام السعيدة التى قضياها قبل الزواج . وتبقى كنزا جميلا يستلهمان منه الوفاق والسعادة .

أختر أرملتك

كوارث الدنيا كثيرة . ويجب لذلك أن نحسب للأسوأ .

فنحن نختار الزوجة جميلة ، أو متعلمة ، أو من عائلة حسنة . ولكن علينا مع ذلك أن نحسب للكارثة التى قد تقع بنا . إذ قد يموت الزوج بعد عشر سنوات أو عشرين من الزواج الهنىء وعندئذ تصير زوجته أرملة عليها تبعات من حيث تربية الأبناء والتصرف بأموالهم التى خلفها لهم والدهم .

ولذلك يجب عندما نتزوج ألا نقتصر على السؤال : هل هذه الفتاة تصلح لأن تكون زوجتى ؟ وإنما نزيد عليه بأن نسأل : هل هى تصلح لأن تكون أرملة بعد وفاتى ؟

وخير الأرامل هى تلك التى كانت تعمل عملا حرا كاسبا قبل أن تتزوج . ذلك أنها حين تتزوج تبادر إلى الوقوف على الحقائق الاقتصادية . حرفة زوجها ، وممتلكاته . وطرق استغلاله لها ، فاذا مات فانها لن تفاجأ بثروة تجهل أصولها وفروعها . وقد يندس فيها من يخدعها أو يغشها اعتمادا على جهلها . ثم هى تستطيع بعد وفاة الزوج أن تعود إلى عملها السابق وتكسب منه لأطفالها .

ولكن ليست جميع الزوجات على هذا الغرار أو هذه القدرة

وإذن يجب على الزوج المتبصر أن يحسب لهذا المستقبل المجهول وأن يفرض أنه سيموت قبل زوجته وأن يعلمها كيف تدير أعماله وثروته بعد وفاته .

وليس معنى هذا أن يصارحها بكل هذا الكلام الذى يؤلم . وإنما هو يستطيع أن يشرك زوجته فى أعماله بعد أن يوهمها أو يفهمها أنه متعب لا يستطيع أن يذهب إلى الضيعة التى تغل له خمسمائة أو ألف جنيه فى العام . وعندئذ يرشدها إلى الطريقة التى تعرف بها كيف تحاسب المستأجرين .

ويستطيع كذلك أن يكل اليها شراء بعض الأسهم فى إحدى الشركات بأن يسلمها مائتى جنيه ويطلب اليها ، لأنه متعب أو مشغول ، أن تقصد إلى المصرف وتشترى هذه الأسهم ، وبعد شهور يكلفها بيع هذه الأسهم سواء بالكسب أو الخسارة .

وهى بالطبع حين تشتبك فى هذه الأعمال المالية ستجد نفسها كل صباح تقرأ أخبار البورصة وتقلبات الأسعار فى الأسهم وتعرف متى يكون الخسار ومتى يكون الكسب .

وكذلك عليه أن يكلفها أداء الأقساط للتأمين والأقساط الأخرى للعقارات المرهونة ثم يحسب معها مقدار مالها فى شركة التأمين وكم يتبقى من الدين لفك الرهن عن عقاره المرهون .

يفعل ذلك بدعوى التعب أو أنه مرهق بالأعمال وأن عليها

أن تساعده. وهى عندما تدخل فى غمار أعماله ستجد مسرة وارتياحا ويشتغل بالها بما يزيد ثروتها . بل هى قد تشرع فى وقف النفقات الزائدة لأن احساسها بزيادة الثروة يحملها مسئوليات جديدة ووجهة نظر جديدة تنحو نحو الجد والتبصر مع البعد عن الرعونة والطيش فى النفقات . لأنها مسئولة .

فاذا أحس الزوج أن منيته قد اقتربت فانه يجب أن يساعد أرملته على النهوض بتركته بأن يصفيها من القضايا والديون المعقدة . بل كذلك عليه أن يتخلص من الشركاء الذين يقدر مطامعهم بعد وفاته حين يستضعفون زوجته ويحتالون عليها بغية اغتيال أموالها أو الاستيلاء على أكبر مقدار منها .

هذا هو أهم فصل فى كتاب جديد قرأته هذا الاسبوع وعبرته عندنا هو الجرأة الصريحة على مواجهة الحقائق مهما يكن سوادها حالكا . فان الموت لا مفر منه . وما دام المرجح أن الزوج سيموت قبل زوجته فان عليه واجبا هو تهيئتها لأن تكون أرملة رزينة عارفة بحقوقها وحقوق أولادها لا يستطيع أحد أن يخدعها ويبلص حقوقها وحقوقهم منها .

ونعود فنكرر أن خير الأرامل هى تلك التى كانت تعمل قبل الزواج وتكسب من عملها . لأن هذا العمل يكسبها عقلية اجتماعية

وتنبها اقتصاديا وتبصرا لمستقبل الأولاد . بل هي تستطيع أن تعولهم إذا لم يكن الأب قد ترك لهم ما يعيشون منه .

وشر الأرامل هي تلك الجاهلة التي يثبت جهلها أمام المحكمة المختصة (ما يقابل عندنا المجالس الحسبية) . فتعين لها وصيا من أولئك التماسيح الذين يشربون دمها ودم أولادها وهي عاجزة عن اثبات حقوقها أو صيانتها من السرقات والاختلاسات .

سلامه موسى

فى سطور

- يبلغ الأستاذ سلامه موسى سن السبعين فى يناير من سنة ١٩٥٧ .
- بدأ حياته القلمية فى سنة ١٩٠٩ بمقال فى المقتطف عن الفيلسوف نيتشه .
- اشترك فى تأليف الحزب الاشتراكى فى سنة ١٩٢٠ .
- اتهم بقلب نظام الحكم سنة ١٩٤٦ وأنه يعمل لإيجاد جمهورية بدلا من الملكية .
- ألف نحو أربعين كتابا فى الأدب والعلم والفلسفة والاجتماع .
- كتب تاريخ حياته فى كتاب أصدره فى سنة ١٩٤٧ بعنوان « تربية سلامه موسى » .
- اشتغل بتحرير الهلال من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٢٩ .
- حرر فى البلاغ وأصدر المجلة الجديدة فى سنة ١٩٣٠ .
- أنشأ جمعية « المصرى للمصرى » للدعوة إلى الاستقلال الاقتصادى بإيثار الصانع والتاجر المصريين على الأجانب

دار النشر المصرية

التوزيع للبلاد العربية شركة فرج الله للصحافة ص . ب ١٥٢٥ القاهرة